فتحي يكن

التربية الوقائية في الإسلام

مؤسسة الرسالة

فتحي يكن

التربية الوقائية في الإسلام

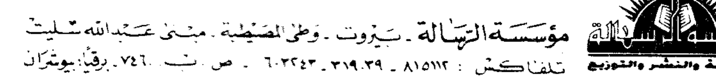
مؤسسة الرسالة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الطبعة السابعة

١٤١٨هـ / ١٩٩٧م





Al-Resalah BEIRUT / LEBANON - TELEFAX : 815112 -319039 - 603243 - P. O. BOX : 117460
PUBLISHING HOUSE

E-mail: Resalah@Cyberia.net.lb : البريد الإلكتروني

الإهـــداء

إلى رفيقة الدرب، شقيقة القلب.

إلى الزوجة التي عرفتها داعية ومربية.

إلى أم البنات الأربع: إيمان وعائشة وجنان ورابعة، بل أم المئات اللواتي تخرجن على يدها مسلمات داعيات بتوفيق الله تعالى.

إلى أم (السالمين):

سالم الشهيد (أبو الشهيد) الذي قضى في إحدى معارك الجهاد عام ١٩٧٦.

وسالم الوليد الذي اسأل الله أن يجعله قرة عين ومن الصالحين.

إلى العزيزة: أم بلال أهدي هذا الكتاب الذي عاشته معي في قراءته، وعشته معها في كتابته، عربون وفاء. . .

أبو بلال



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

كثير من المشكلات التي تبرز على ساحة العمل الإسلامي، وفي نطاق الدعوة إلى الإسلام، يتسببها أسلوب متخلف ونمط من الممارسة خاطىء.. إنه متخلف لأنه في كثير من الأحيان يكون ردة فعل لفعل الآخرين، وهو خاطىء لكونه لا يهتم بالوقاية من المشكلة لتلافيها، وإنما يتصدى لمعالجتها بعد بروزها وتناميها..

إنها الظاهرة التي تتكرر على ساحة العمل الإسلامي، وتتكرر معها المأساة. مأساة الوقوع فيما وقع فيه من سبق دونما استفادة من التجربة.. مأساة الاستدراج لمخططات الغير ومواقف الغير ومعارك الغير.. مأساة السقوط في أسر المشكلات التي يتسببها الغير..

وبذلك يبقى العمل الإسلامي مرتهناً لفعل الآخرين ومخططاتهم وخططهم، دون أن يأخذ المبادرة، ليكون هو صاحب الفعل لا سواه..

هذا فى الجانب الحركي مما يجري على الساحة الإسلامية، أما الجانب التربوي فإنه ليس أحسن حظاً منه.. فالعملية التربوية لا تزال حتى اليوم قاصرة وفاشلة، ودون القدرة على تكوين الجيل الإسلامي المنشود.. والسبب الرئيسي في نظري إنما يعود - والله أعلم - إلى أن النظرية التربوية تعتمد نمط العلاج لا الوقاية.

من هنا كان هذا البحث، محاولة متواضعة لسبر أغوار هذه الظاهرة المتكررة على امتداد ساحة العمل الإسلامي، وفي المجالين الحركي والتربوي، مما يتسبب بإضاعة كثير من الأوقات، وإجهاض كثير من الطاقات، وإقحام الساحة الإسلامية والعاملين عليها في دوامات المشاكل والأزمات التي لا تنتهي...

أرجو أن يكون في ذلك ما يعين على التخلص من هذه الظاهرة ومن أخطارها ومحاذيرها بعون الله تعالى...

والله المستعان ابتداء وانتهاء وهو ولي الأمر والتوفيق.

المؤلف

١ .رجب الخير ١٤٠٨ هـ.

١٨ شباط ١٩٨٨ م

الفصل الأول

ماذا أعني بالوقاية والعلاج؟

الشائع والمعروف في عالم الطب، أن المرض يسبق العلاج، وأن الوقاية تسبق المرض ولهذا قالوا: (درهم وقاية خير من قنطار علاج).

والطب الوقائي في الإسلام، يقوم على قواعد أساسية من التحصن من شأنها أن تكسب الجسم مناعة ذاتية تقيه غوائل العدوى والأمراض الوافدة وميكروباتها وفيروساتها المختلفة. .

يقول ابن قيم الجوزية: (وقد اتفق الأطباء على أنه متى أمكن التداوي بالغذاء لا يُعدل عنه إلى الدواء. . وقالوا: كل داء قُدِر على دفعه بالأغذية والحِمْية لم يحاول دفعه بالأدوية. . وقالوا: ولا ينبغي للطبيب أن يولع بسقي الأدوية، فإن الدواء إذا لم يجد في البدن داء يحلله، أو وجد داء لا يوافقه، أو وجد ما يوافقه، فزادت كميته عليه أو كيفيته، تشبث بالصحة وعبث بها)[١].

---

(١) زاد المعاد: ٤/١٠.

جاء في كتاب «مع الطب في القرآن»[1]: (الفرق كبير بين أن نترك الإنسان ليُصاب بالمرض ثم نسعى لمعالجته، وبين أن نقيه من المرض أصلاً).

أجل.. إن معالجة مريض (التدرن) السل التي تستمر وسطياً حوالي سنة ونصف تكلف المريض والدولة أموالاً وإمكانات كبيرة، إضافة لما يعانيه المريض من العذاب والخطر، بينما لا تتطلب وقايته من التدرّن سوى لُقاح يكلف بضعة قروش..

ولقد أدرك الحكماء القدامى هذا الفرق، وكذلك الأمم الحديثة، فأولوا الجوانب الوقائية الاهتمام الأول في كل التدابير الصحية.

وإنه ليأخذ الناظر في كتاب الله العجب العجاب حينما يجده قد أولى النواحي الوقائية الأهمية الكبرى، وأرسى دعائم الطب الوقائي، في الوقت الذي لم يهمل معه النواحي العلاجية ولكن لا عجب في ذلك، فالقرآن ذكرُ رب العالمين، أنزله على الناس ليأخذ بناصيتهم إلى الطريق القويم، طريق الصحة والقوة والمجد ﴿إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾.

---

(١) مع الطب في القرآن للدكتور عبدالحميد دياب والدكتور أحمد قرقوز.

لقد بينّ القرآن الكريم، حينما نادى البشرية ﴿ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾[1]، بينّ لهم الطرق التي تؤدي بهم إلى الهلاك، وحذرهم أشد التحذير منها، وتوعد من يسلكها أشد الوعيد، رحمة به وبمجتمعه، كما بين لهم السبل التي تسمو بهم جسدياً ونفسياً نحو الصحة والسلامة. كل ذلك في إطار علمي لم ولن يشهد التاريخ له مثيلاً.

فمن الأسباب الوقائية الطبية في الإسلام:

- الاهتمام بالطهارة والنظافة الشخصية والمجتمعية، وإعلانه أن «النظافة تدعو إلى الإيمان»[2].

- الحض على الأخذ بأسباب القوة الجسدية بشتى الرياضات «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»[3].

- إدراك قيمة العافية والمحافظة عليها. قال عبدالرحمن بن أبي ليلى: عن أبي الدرداء: «قلت: يا رسول الله، لأن أعافى فأشكر أحب إلي من أن أبتلى فأصبر. فقال الرسول ﷺ: ورسول الله يحب معك العافية»[4].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٧

(٢) رواه الطبراني.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه أبو داود.

ـ التحذير من أتيان الخبائث المدمرة للصحة في المأكل والمشرب والمنكح وغيرها التي تورث العلل والأسقام وتورد الأمم موارد التهلك كوباء (الإيدز) الذي يقض مضاجع العالم اليوم لكونه يتسبب بفقدان المناعة المكتسبة، ويجعل الإنسان المصاب عرضة لكل الآفات وللموت السريع المحقق. ويكفي هنا أن نشير إلى أن السبب الرئيسي لهذا المرض هو الشذوذ الجنسي (اللواط)، ولنا عودة إلى هذا الموضوع في مكان لاحق من هذا الكتاب..

وقائية الإسلام عامة:

وإذا كان الإسلام وقائياً في مجال «الطب الجسدي» فإنه كذلك في كل المجالات الأخرى..

فهو وقائي في مجال العقيدة.. فاطمئنان القلوب ثمرة من ثمرات معرفة الله تعالى وذكره.. والقلوب المتصلة بالله الذاكرة لله لا تعرف القلق الذي تعيشه المجتمعات ـ غير الإسلامية ـ والذي أورثها الأمراض العصبية المختلفة، ودفع بها في طريق الجريمة والانتحار إلى الدرك الأسفل.. وصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[1] ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾[2].

---

(١) سورة الرعد: الآية ٢٨.

(٢) سورة الرعد: الآية ٢٨.

وهو وقائي في مجال العبادة.. إذ أن الاستقامة والبعد عن الفحشاء والمنكر ثمرة من ثمرات الصلاة والصوم وغيرها.. فالوقائية تبدو جلية في قول الله تعالى: ﴿إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[1] وفي قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصيام كما كُتِبَ على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾[2].

أولم يقل رسول الله ﷺ: «مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات»[3]، وفي حديث آخر: «الصيام جنة (وقاية) فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل: إني صائم، إني صائم... الحديث»[4].

فالعبادة، وإن كان مقصدها التوجه إلى المعبود بالطاعة إلتزاماً لأمره وطلباً لمرضاته وكما يقول الشاطبي: (فالصلاة مثلاً أصل مشروعيتها الخضوع لله سبحانه بإخلاص التوجه إليه، والانتصاب على قدم الذلة والصغار بين يديه، وتذكير النفس

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٥.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٣.
(٣) رواه مسلم.
(٤) متفق عليه.

بالذكر له)[1]، فإن لها مقاصد أخرى تابعة تدخل في صلب عملية التكوين الوقائي للفرد والجماعة.. روى أبو داود أن رجلاً من خزاعة قال: ليتني صليت فاسترحت. فكأنهم عابوا ذلك عليه. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أقم الصلاة يا بلال، أرحنا بها..»[2].

- وهو وقائي في مجال التشريع.. إذ أن الأحكام الشرعية التي من شأنها تنظيف المجتمع من الموبقات، والعقوبات الإسلامية الزاجرة الرادعة لمن تسول لهم نفوسهم ارتكاب المنكرات من شأنها أن تحفظ المجتمع سليماً معافى.

جاء في كتاب أصول الدعوة: (والحقيقة أن الشريعة تَعُنى بإصلاح الفرد إصلاحاً جذرياً عن طريق تربيته على معاني العقيدة الإسلامية ومنها: مراقبة الله، وخوفه منه، وأداء ما افترضه عليه من ضروب العبادات. وهذا كله سيجعل نفسه مطواعة لفعل الخير، كارهة لفعل الشر، بعيدة عن ارتكاب الجرائم. وفي هذا كله أكبر زاجر للنفوس. وبالإضافة إلى ذلك فإن الشريعة تهتم بطهارة المجتمع وإزالة مفاسده. ولهذا ألزمت أفراده بإزالة المنكر. ولا شك أن المجتمع الطاهر العفيف

---

(١) للشاطبي.

(٢) رواه أبو داود.

سيساعد كثيراً على منع الإجرام وقمع المجرمين، وسيقوي جانب الخير في النفوس، ويسد منافذ الشر التي تطل منها النفوس الضعيفة، وفي هذا ضمان أيضاً لتقوية النفوس وإعطائها مناعة ضد الإجرام.

ولكن مع هذا كله، فقد تسول للبعض نفوسهم ارتكاب الجرائم، فكان لا بد من عقوبة عاجلة زاجرة تمنعهم من العودة إليها، وتردع الآخرين الذين تسول لهم أنفسهم ارتكاب الجريمة، وفي هذا استقرار للمجتمع وإشاعة للطمأنينة فيه)[1].

* * *

من خلال ما تقدم والذي سقناه على سبيل المثال، يتبين لنا أن اهتمام الإسلام بالجانب الوقائي يفوق بشكل كبير اهتمامه بالجانب العلاجي، وهذا ما يجعل المنهج الإسلامي متفرداً على سائر المناهج ذات المنحى العلاجي المرضي.

---

(١) أصول الدعوة لعبدالكريم زيدان: ص ٢٧١.

الفصل الثاني

النهج العلاجي مرض مزمن

إن اعتماد النهج العلاجي في عالم الأبدان، كما في عالم الأرواح، وفي نطاق الفرد كما في نطاق الجماعة، وفي إطار السلوك الفردي، كما في إطار العمل الدعوي والحركي، من شأنه أن يتسبب بفقدان المناعة الذاتية والمكتسبة، وتعود الإدمان العلاجي، وفي هذا خطر كبير وشر مستطير. .

والبُنية الحركية كالبنية البشرية، تحتاج لمواجهة الظروف الصعبة إلى مقومات ذاتية تُمكنها من تجاوزها وتخطيها بسلام وأمان. .

وكل بنية حركية تدخل معترك الصراع، أو تُستدرج إليه قبل الأوان، وقبل أن تمتلك مقومات الصمود تكون قد حكمت على نفسها بالإعدام. . وشأنها في ذلك شأن الجاهل الذي يرمي نفسه إلى لُجَّة البحر قبل أن يتعلم السباحة، لأنه يكون قد حكم على نفسه بالغرق.

ومن هنا كان سر اندثار كثير من الحركات التي قامت ثم بادت، لأنها استعجلت الشدائد قبل أن تتهيأ لها، واعتمدت

مواقف وسياسات غير قادرة عليها، ورفعت شعارات وهي خاوية الوفاض من مضمونها، فدخلت النفق المظلم، حيث تتكاثر وتزدحم المشكلات، ولا من مناعات كافية أو علاجات شافية. فحُمّ القدر، وعمي البصر، ووقع ما هو أدهى وأمر.

إن الحركة ـ أية حركة ـ عندما تتخطى حجمها، ولا تلتزم حدّها، وتُعلن من الطروحات ما يفوق طاقتها وقدرتها، تكون قد فقدت المناعة، وسقطت في دوامة الاستنزاف، ووقعت بين فكي المرض والعلاج إلى ما شاء الله.

أما النهج الذي يعتمد على تفعيل القدرات الذاتية، وإيجاد المناعات الخاصة، واكتساب الطاقات الوقائية ابتداء وقبل دخول معترك الصراع وحقول التجارب، فإن من شأنه أن يحفظ البُنية سليمة على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة، كما من شأنه أن يوفر الطاقات من أن تُهدر بلا طائل، ويعمل على خفض نسبة الخلل إلى الحدود الدنيا..

إن مَثَلَ ذلك كمثل جيش كامل التجهيز، كامل التعبئة والتدريب، قيادته على قدر كبير من الوعي وبُعد النظر وتقدير الأمور... تعرف قدرات العدو وحيله العسكرية، تعرف سلاحه وتكتيكاته المعتمدة، متأهبة لجبه كل المفاجئات، آخذة بكل الإحتياطات.

إن هذا الجيش ـ بما أخذه من أسباب وقـائية ودفـاعية ـ أقدر في المقياس المادي على النجـاح وتحقيق النصر من آخر عادي التجهيز أو ضعيفه، وعديم الوقاية والحيطة. .

وعن أهمية الحيطة والوقاية يقول العقيد محمد صفا، فـي كتابه الحرب: (الحيطة هي السلامة. أو هي الواسطة لتحقيق السلامة. . إنها الاحتياط ضد الطوارىء والمفاجئـات من أي نوع كانت ومن جميـع الاتجاهـات. وإنه واجب كـل مسئول (وجماعة) أن لا يؤخذ أبداً على غرة. .

والحيطة، التي هي لغة الاحتياط للطوارىء من كل نوع ومصدر، والتي هي عملياً عبارة عن مجموع وحاصل لعدد من التدابير والاجراءات الاحترازيـة والتحضيريـة، وكذلـك نتاج (لتكوين) الفرد والجماعة. وهي كمبدأ استراتيجي وتكتيكي في مقـدمة المبـادىء (العمـلانيـة) الأسـاسيـة من حيث الأهميـة والأسبقية.

تستدعي الحيطة قبل كل شيء، معرفة بالخطر وتقديره حق قدره، وتحديداً لنوعه ومصادره واتجاهاته، وتحضيراً للوسـائل العلمية والمادية من أجل تجنبه ومقابلته. .

إنـه لا مباغتـه أبداً حيث تكـون الحيطة جيـدة وشاملة ومستمرة دون انقطاع. ولما كانت المباغتة نصف الـطريق إلى

النصر، فالحيطة، التي تحول دون وقوع المباغتة، هي أيضاً نصف الطريق إلى النصر..)[1].

وفي نطاق العمل الإسلامي وحياة الدعوة والداعية الوضع متشابه.. فالحركة التي تأخذ بكل أسباب الإعداد العقائدي والفكري والتربوي والحسي، وتكون مناهج التربية عندها وقائية، وتصوغ قراراتها ومواقفها في ضوء المنطق الذي يفرضه الشرع، وفق الأولويات والقدرات والظروف المتاحة، ووفق ما تريد هي، لا وفق ما يريده العدو، وفي الزمان والمكان والكيفية التي تناسبها هي لا وفق ما يفرض عليها لاستدارجها وإجهاضها.. هذه الحركة تكون مالكة لزمام نفسها وقواها وخطواتها ونهجها ـ بعون الله ـ غير منساقة أو مستدرجة أو محتواة أو مخترقة. وتكون بعيدة عن دوامة الاستنزاف واحتياجات العناية الطبية اليومية الفائقة.. ولنسمع إلى اللفتات القرآنية في صميم هذا المعنى حيث يقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حِذركم... الآية﴾[2]، ويقول: ﴿.. ودَّ الذينَ كفروا لو تَغفَلونَ عن أسلِحتِكمْ وأمتِعَتِكُم فيَميلونَ عليكم مَيْلةً واحدة.. الآية﴾[3].

(١) راجع كتاب الحرب للعقيد محمد صفا ـ الفصل الخاص بمستلزمات الحيطة.

(٢) سورة النساء: الآية ٧١.

(٣) سورة النساء: الآية ١٠٢.

الفصل الثالث

الوقاية التربوية

وإذا أردنا أن ننتقل من العموميات في الكلام عن الوقاية وضرورتها في كل جانب من جوانب الحياة، نبدأ بالكلام في هذا الفصل عن الوقاية التربوية أو التربية الوقائية . .

التربية ـ عموماً ـ عملية بناء للفرد والمجتمع وفق صيغة قائمة على مفاهيم عقائدية وأخلاقية محددة، فإذا كانت التربية إسلامية، كان ارتكاز هذه الصيغة على مفاهيم الإسلام العقائدية والفكرية والمسلكية . .

والعملية التربوية في الإسلام تستهدف بناء الشخصية، بناء الفرد والمجتمع، وفق هذه المفاهيم تماماً ومن غير مداخلات أخرى . . فإذا تحقق ذلك كان بناء الشخصية الإسلامية بناء متكاملاً ومتوازناً ووقائياً. الشخصية التي تمتلك مناعة ذاتية تحفظها من السقوط في المتاهات والانحرافات والوقوع في فخ الأهواء والنزوات.

إن ملاحظة أن تكون العملية التربوية وقائية من شأنها خفض نسبة المشكلات والافات في حياة الفرد والجماعة إلى

الحدود الدنيا كما سبق وأشرنا، وبالتالي خفض نسبة الطاقات والأوقات التي تُهدر ـ وعلى كل المستويات ـ إلى الحدود الدنيا كذلك.

إن الساحة الإسلامية عموماً لا تزال تعاني من إخفاق مناهج التربية، ومن بروز وتنامي ظواهر مرضية كثيرة.. والاعتبارات في هذا الشأن كثيرة، منها:

١ ـ إن العملية التربوية تتم وسط بيئة منحرفة لا تساعد على إنجاح العملية، وإنما تتسبب بإجهاضها وافشالها..

٢ ـ إن هذه البيئة، بما تمتلكه من إمكانات التأثير المختلفة، التعليمية والإعلامية وغيرها، تجاوز أثرها الشريحة المُراد تربيتها، إلى النهج التربوي نفسه وإلى آلية التربية نفسها.

٣ ـ إن عملية التربية لا تزال تراكمية الأسلوب، لا تقوم على نظرية متكاملة الحلقات والمفردات، متناسقة الأدوار والخطوات. فهي تقليدية المنحى، شأنها شأن البرامج التعليمية (المدرسية أو الجامعية) مما يُفقدها القدرة على تحويل هذه المفاهيم إلى واقع مُعاش، وإلى ممارسات سليمة، وإلى مواقف ومبادرات ذاتية صحيحة في شتى المجالات..

إن بروز كثير من الآفات المرضية في بنيتنا التربوية والحركية، ومن خلال الممارسات والتجارب المختلفة: كسقوط الأعضاء وخسارتهم، والنزعات الفردية القاتلة، والظواهر

العنفية والتطرفية المدمرة، والنزعات النفعية والمصلحية المؤذية، وافرازات الخطوات والمشاريع غير المدروسة، والانشقاقات في البُنى التحتية والفوقية، والعصبيات المحلية والإقليمية، وعدم تفعيل الدور المؤسسي، وضعف التأثير في المحيط، والفشل في بناء البيت المسلم، وتراجعية القدوة الحسنة، يؤكد وجود خلل ما في النهج التربوي.

بصراحة أقول.. إن عملية التربية - حتى تكون فاعلة وجذرية ووقائية - يجب أن تعتمد أسلوب (التخلية ثم الترقية) أي قاعدة (التضعيف ثم التوثيق). وبعبارة أوضح قاعدة تدمير القديم وبناء الجديد، أي إزالة رواسب الماضي، وإعادة بناء الشخصية وفق الأسس والأوليات الشرعية..

إن العملية التربوية يجب أن تبدأ، بعد كشف الحالة التي عليها الفرد، لمعرفة: أفكاره وكيف يفكر، تصرفاته وكيف يتصرف، علاقاته ومن يعاشر، مشاكله ومسبباتها، ميوله وغرائزه ومدى تحكمه فيها، نقاط القوة والضعف عنده، مكامن الخير والشر فيه.. بعد ذلك، يمكن تحديد المنهج موضوعاً وكيفية.. وكل عملية تربوية تتم خلاف ذلك لا تحقق إلا تراكمات جديدة في شخصية الفرد، قد تُصيب حيناً، ولكنها تكون فاشلة في غالب الأحيان، لأن الجديد بُني على اعوجاج القديم..

إن على الحركة الإسلامية أن تُعيد النظر وبشكل جذري في العمليـة التربـوية. يجب أن تتحسس الـواقع بمـا فيه من أمراض وعلل، أن تدرس التجارب التربوية ومدى نجاحاتها. وأن تستيقن من مدى جدارة المناهج المعتمدة، لترى في النهاية إن كانت هذه المناهج تتكافأ مع عملية تغيير الواقـع ـ أفراداً وحركة ـ والارتقاء به إلى المرتجى؟.

اكتفي بعرض مثال واحد من الظواهر المرضية في الواقع الحركي الإسلامـي المعـاش وهو مرض الانفصام المـزمن بين السياسة والتربية، والخصام شبه الدائم بين العاملين في الحقل السياسي وبين العاملين في الحقل الـتربوي.. ولا أرى سببـاً رئيسياً لذلك إلا أن العاملين في الحقل السياسي انقطعوا عن المجالات والاهتمامات الشرعية والتربوية ـ فكراً وممارسة ـ وأن العاملين في الحقل التربوي انقطعوا عن المجالات والاهتمامات السياسية والاجتماعية ـ فكراً وممارسة كذلك ـ

كما نجد: أن المفهوم السياسي والنظرية السياسية، غـير مبنية على أدلةٍ شرعية، وأن المفاهيم الشرعية والمناهج التربوية، غير مرتبطة بالواقع السياسي أو مُلاحِظة له.

إن النظرية التربوية يجب أن تستهدف ـ ومن خلال أي منهج يـوضـع ومفـردات تُعتمـد وتصنف ـ تكـوين الجيــل الإسلامي المنشود.. ومن مواصفاته:

- أن يكون متفقهاً في شرع الله ملتزماً به.
- أن يكون فاعلاً في مجتمعه وبيئته بأفكاره وسلوكه ومواقفه وطروحاته.
- أن يعيش هم الإسلام والحالة الإسلامية في كل شؤونه.
- أن يكون واعياً لزمانه وعصره مُدركاً لما يجري حوله. فهو إن كان مكلفاً بحيازة ما يجب أن يُعرف من الدين بالضرورة، فإنه مكلفٌ كذلك بحيازة ما يجب أن يُعرف من (العصر) بكل أحواله السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأمنية وغيرها بالضرورة كذلك، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

إن نجاح العملية التربوية ليس في اختزان المعلومات والثقافات والعلوم المختلفة وملء الأدمغة بالمعارف، إنما في تفعيل هذه جميعاً لتؤدي كل معرفة دورها الصحيح في عملية التربية والتكوين الوقائيين، و الله أعلم...

إن نجاح هذه العملية يرتبط كذلك بمدى قدرة المربي على تحديد نقطة البدء في التكوين، لأن البداية الصحيحة تحقق النهاية الصحيحة. وفي كثير من الأحيان يكون منشأ الفشل في مجال التربية، ناجماً عن كون المربي لم يعرف من أين يبدأ وكيف يبدأ.

إن مثل ذلك كمثل بناء (العمارات والدور)، فإن أقيم البناء من غير سبر لأغوار الأرض ومعرفة بطبيعتها وتربتها

وخصائصها، وما يلزمها من عُمقِ الأساس، ومئونة الحديد والأسمنت وخلافه، كان بناءً ضعيفاً معرضاً للإنهيار والسقوط لدى أدنى اهتزاز.

فالعملية التربوية يجب أن تبدأ ـ إذن بعد كشف الحالة التي عليها الفرد، ويجب أن تكون وفق نظرية تربوية متناسقة المفردات والعلوم والمعارف والثقافات، وبواسطة مرب يملك إمكانيات التربية، ويملك قوة النظر والفراسة في الناس، فيتناولهم من حيث يستجيبون ويتأثرون، ويخاطبهم من حيث يسمعون ويفهمون. .

وفي معظم الأحيان يعود الفشل في الحقل التربوي إلى الأمور التالية:

- إن المربي لم يستكشف شخصية الفرد ومفردات تكوينه السابقة ليَبني على أساسها.
- إن المربي لا يملك المقومات التي تساعد على التربية.
- إن المادة التربوية لم يحسن اختيارها، فيتعطل بالتالي مفعولها.
- إن بناء الجديد كان في الفراغ أو على أساس غير سليم، أو فوق تراكمات لم يجر رفعها وإزالتها.

شواهد من الواقع:

هنالك شواهد كثيرة يمكن أن تُساق على فشل النهج التربوي والعملية التربوية. .

ـ أذكر أن شاباً (ناصرياً) كان مهووساً بالريـاضة التحق بأحد نوادينا الرياضية. وكان ذلك مدخلاً لاجتذابه إلى إحدى الحلقات الدراسيـة.. هذا الشـاب بقي في الحلقة الـدراسية قرابة عامين، حفظ خلالهـا بعض قصار السـور، والأربعين حديثاً النووية. وتعلم بعض الأحكام الشرعية المتعلقة بالطهارة والنجاسة ونواقض الوضوء وموجبات الغسل وفرائض الصلاة وسننها..

والحقيقة أن هذه المفردات ـ على قيمتها الذاتية ـ لم تكون هي المادة التي يحتاجهـا ابتداء.. لم تكن المـدخل الصحيـح لعملية التغيير في أفكاره وتصوراته ومعتقداته.. ولذلك بقي ناصري العقيدة، ناصري التفكير، ناصري السياسة والتوجه وإن بقي مقيم الصلاة محافظاً على الشعائر الدينية.. وفي ظرف من ظروف المفاصلة الجذرية بـين الاتجاه الإسـلامي والاتجاه الناصري، كان هذا الشاب في أقصى موقع من مواقع الناصرية تطرفاً وإسفافاً.

من النـماذج التي يمكن أن تساق عـلى النهج النبـوي في المتابعة التربوية من المربي، أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: ما شاء الله وشئت يا رسول الله. فأنكر ذلك رسـول الله وابتدره على الفور بما يصحح عقيدته وينقيها. فقال: «أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده» وقال له آخر: من يطع الله ورسوله فقد

رشد، ومن يعصهما فقد غوى. فقال رسول الله ﷺ مصححاً: «بئس الخطيب أنت. قل: ومن يعص الله ورسوله»[1].

ـ شخص آخر تبوأ على الساحة الإسلامية مناصب قيادية مرموقة مع أنه كان معروفاً بحب الزعامة والدوران في الذات منذ حداثته.. المنهج التربوي التراكمي لم يستهدف استئصال العلة وإنما غلفّها.. والتخطيط الحركي بدل أن يعمل على تحجيم التطلعات الشخصية لديه عمل على بعثها وتناميها. فرشح إلى منصب زعامي كان بالنسبة للحركة غلطة العمر، وبالنسبة إليه قاسمة الظهر.. كل ذلك بالرغم من التحذير النبوي الوقائي، والذي أشار إليه رسول الله ﷺ في أكثر من موضع، حيث قال: «طالب الولاية لا يولى»، وقال: «إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً سأله، وأحداً حرص عليه»[2] وقال: «اتقوا الله، فإن أخونكم عندنا من طلب العمل»[3].

ـ وشخص آخر تعهدته الدعوة صبياً يافعاً حتى بلغ من خلالها وبتشجيع منها مراتب اجتماعية وعلمية عالية.. كان مصاباً بداء العظمة والغرور منذ الصغر. ومعروفاً بنزعة فردية

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الطبراني في الكبير.

قاتلة. لم تعمد مناهج التربية إلى معالجتها واستئصالها، ولم تتعد العناية به جانب التكوين العلمي والثقافي والخطابي.. ولذلك كبر في الدعوة وكبر داؤه. وعندما استفحل أمره وزاد خطره، تحرك المعنيون للعلاج ولكن بعد فوات الأوان، وبعد أن بلغ مرحلة اللاعودة.. هذا الإنسان لم يتورع عن أن يمتد لسانه على من علمه الكلام بالنقد والتجريح، وقد غفل عن التوجيه النبوي الكريم: «لا تنسوا الفضل بينكم»، «إن الله يسأل عن عشرة ساعة»، وصدق الله تعالى حيث يقول؛ ﴿قُتِلَ الإنسان ما أكفره* من أي شيء خلقه* من نطفة خلقه فقدره* ثم السبيل يسره* ثم أماته فأقبره* ثم إذا شاء انشره* كلا لمّا يقضِ ما أمره﴾[1].

وهكذا تتكاثر الظواهر الفاجعة على مسرح الدعوة من جراء فشل العملية التربوية، وعدم ملامسة المنهج التربوي ومفرداته مكامن العلة وجذور الداء، والذي لا يمكن تحديده من غير اعتماد لصيغة (التصفية ثم الترقية) ومن غير استئصال للأدران السرطانية المتشبثة بعقلية الفرد ونفسيته.

إن عملية (التصفية أو التخلية) التي تسبق مرحلة التربية والترقية، تتفاوت موضوعاً ونهجاً بين شخص وآخر، وذلك

---

(١) سورة عبس: الآية ١٧.

بحسب ما لدى كل فرد من سابق تصورات وأفكار وعادات وطباع ومشكلات. . وبحسب ما عنده من استعدادات للتلقي والانفعال. وفي هذه الحالة والمرحلة لا يمكن أن تكون وحدة التوجيه والعطاء ناجحة. أما إذا استوى الجميع بعد عملية التصفية، وتم اجتثاث رواسب الماضي ومخلفاتها من حياتهم، فيمكن أن تتم مرحلة التربية والترقية وفق منهج واحد وبنجاح، شرط أن تنتظم مفردات المنهج نظرية تربوية كاملة، وقدرة على التربية فاعلة. .

إن المنهج التربوي يجب أن يستهدف بناء: العقلية الإسلامية والنفسية الإسلامية اللتين تتكون منهما الشخصية الإسلامية، وأن تحقق مفردات المنهج خدمة هذا الهدف بشكل أساسي.

فالدراسات القرآنية: يجب أن تؤدي دوراً أساسياً في خلق الشخصية القرآنية، يأخذ منها المسلم الفكر لعقله، والنور لقلبه، والقوة لإرادته، والوقاية لنفسه من وساوس الشيطان والقاءات الهوى. يعيش القرآن في أحواله كلها، وكأنه المعني بالخطاب والتكليف والترغيب والترهيب. . ومن هنا سر الدعاء الجامع المضيء الذي علمنا إياه رسولنا ﷺ حيث يقول: «اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدل قضاؤك، أسألك بكل إسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو

استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي».

- يقول الغزالي رحمه الله: (درجات القراءة ثلاث:

١ - أن يقدّر العبد كأنه يقرؤه على الله عز وجل، واقفاً بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه. فيكون عند هذا التقدير: السؤال والتملق والتضرع والابتهال.

٢ - والثانية: أن يشهَد بقلبه كأن الله عز وجل يراه ويخاطبه بألطافه، ويناجيه بانعامه. وإحسانه، فمقامه: الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم.

٣ - والثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم، وفي الكلمات، الصفات، فلا ينظر إلى نفسه، ولا إلى قراءته، ولا إلى تعلق الانعام به، بل يكون مقصور الهم على المتكلم، موقوف الفكر عليه، كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره. وهذه درجة المقربين وما قبله أصحاب اليمين، وما خرج عن هذه الصورة فهو درجة الغافلين)[١].

الدراسات القرآنية يجب أن تتعدى في مؤداها وأثرها حدود الحفظ والتلاوة - على أهميتها وقيمتها - إلى تحقيق عملية صياغة

---

(١) إحياء علوم الدين - أبو حامد الغزالي - المجلد الأول ص: ٢٨١.

الشخصية القرآنية. . وحسبي أن انقل هنا بعض الشواهد التي ترسم وتوضح معالم هذه الشخصية:

ـ قال ابن مسعود: (ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس ينامون، وبنهاره إذا الناس يفرطون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون).

ـ قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: (يا رسول الله، أراك شبت؟ فقال: شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت)[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ سمع قارئاً يقرأ: ﴿إنّ لدينا انكالاً وجحيماً﴾، فصعق[2].

ـ وعن ابن عباس قال: (لما أنزل الله على نبيه هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وَقودها الناس والحجارة﴾ تلاها رسول الله ﷺ، فخر فتى مغشياً عليه، فوضع النبي يده على فؤاده فإذا هو يتحرك. فقال رسول الله ﷺ: يا فتى، قل: لا إله إلا الله. فقالها، فبشره بالجنة)[3].

---

(١) رواه البيهقي.

(٢) رواه ابن النجار.

(٣) راجع حياة الصحابة: ٢/٦٢٣ فما بعدها.

هكذا كانت صلة الأولين بالقرآن الكريم، وهكذا كانت علاقتهم به وتفاعلهم مع آياته وأحكامه.

والتكاليف العبادية: يجب أن تؤدي نفس الغرض وتصب في ذات الاتجاه، اتجاه تكوين وصياغة الشخصية الإسلامية، وفق ما شرع الله. فلا تكون العبادة طقوساً جامدة وحركات راكدة ميتة لا روح فيها، وإنما تكون مدخلاً لتجديد الإيمان وتقويته، وتزكية النفس وترقيتها، وتهذيب الجوارح وضبط النزوات وحب الخيرات والمكرمات.

يقول ابن تيمية رحمه الله في رسالة العبودية: (العبادة أصل معناها الذل: يُقال: طريقٌ مُعبد، إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام.. ولكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل والحب. فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له. فإن آخر مراتب الحب هو التتيم، وأوله العلاقة، لتعلق القلب بالمحبوب، ثم الصبابة لانصباب القلب إليه، ثم الغرام، وهو الحب الملازم للقلب، ثم العشق، وآخرها التتيم. يقال: تيم الله، أي عبدالله، فالمتيم، المعبد لمحبوبه. ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه. ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء).

وفي موضع آخر يقول: (وإنما عبدالله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويحب ما أحب الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي أولياء الله تعالى، ويعادي أعداء الله تعالى. هذا هو الذي استكمل الإيمان، كما في الحديث: «من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»[1]، وفي آخر: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»[2].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: (يا حبذا نوم الأكياس وافطارهم، كيف يعيبون سهر الحمقى وصيامهم. ومثقال ذرة من بر صاحب تقوى ويقين أعظم وأفضل وأرحم من أمثال الجبال من عبادة المغترّين)[3].

والدراسات الفقهية: يجب أن يكون الباعث من ورائها التفقه في الدين كيما تحقق معاني العبودية الحقة لله، وامتثال أمره، والاحتكام إلى شرعته، والتزام شريعته، على علم ودراية وهدى ونور. وبذلك تتحقق معايشة الإسلام في كافة شؤون الحياة الخاصة والعامة، السياسية والاجتماعية، الأخلاقية والمعيشية والاقتصادية، وفق أحكام الشرع، وبعيداً عن

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه أحمد والطبراني.

(٣) حياة الصحابة: ٢/٦١٧.

متاهات الأهواء والمصالح، وفي هذا قوة وتكامل المفعول الوقائي في شخصية المسلم، وصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿إنما يخشى اللَّهَ من عباده العلماء﴾[1] وصدق رسوله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[2].

من هنا كان اختلاف دراسة الفقه بين بيئتي: المعهد والدعوة، بين الجامعة والجماعة، مادة وأسلوباً وغاية..

والفارق هنا، إنما يتمثل: في كيفية تفعيل الدور الفقهي والتربية الفقهية في بناء الشخصية الإسلامية. فالغاية يجب أن تتجاوز تحقيق القدرة على الفتوى والاجتهاد، واستنباط الأحكام الشرعية وقوة النظر في الدليل الشرعي، إلى استقامة الأعمال وصلاحها، واستنهاض النفوس من غفلتها والوقوف بها عند حدود الله تعالى. وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «العلم علمان: فعلم ثابت في القلب فذاك العلم النافع، وعلم في اللسان فذلك حجة الله على عباده»[3].

ودراسة السيرة والسنة النبوية: يجب أن تكون للتأسي والاقتداء وليس للمعرفة والعلم المجردين. ونحن حين نفعل ذلك فإنما نذعن لتكليف رباني وأمر آلهي إذ هو القائل

---

(١) سورة فاطر: الآية ٢٨.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه الديلمي.

سبحانه: ﴿لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة﴾[1]، ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم * قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإنّ الله لا يحب الكافرين﴾[2]، ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا...﴾[3].

وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله. ومن يطع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني»[4].

وقال: «من أحب سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة»[5].

وقال: «من تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد»[6].

وقال: «من تمسك بالسنة دخل الجنة»[7]..

وحسن الاقتداء سبب من أسباب حسن الاهتداء، مما يعين على اتقاء مواطن الشر، واجتناب مواقع الضُر، والتزام

---

(١) سورة الممتحنة: الآية ٦.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٣١.
(٣) سورة الحشر: الآية ٧.
(٤) أخرجه البخاري.
(٥) أخرجه الترمذي.
(٦) رواه البيهقي.
(٧) رواه الدارقطني.

سبل الخير.. وقد قيل: قل لي من تعاشر أقل لك من أنت.. فكيف إذا تحققت صُحبة خير الأنام وسيد المرسلين وإمام المتقين سيدنا محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة والتسليم.. إنه الخير كله والأمان كله، والهداية كلها، والوقاية جميعها..

يجب أن نعيش مع رسول الله سيرته وسنته.. في عبادته ومعاملته، في سكوته وكلامه، في شرابه وطعامه، في نومه وقيامه، في حكمه وقضائه، لنحاول - قدر الاستطاعة - أن نفعل كما فعل، ولو بنسبة أقل وقدر أدنى، لأنه المعصوم ولسنا كذلك، ولكونه نبي ونحن أتباعه، ولكونه لا ينطق عن الهوى، وما أكثر الهوى فيما ننطق!.

وحتى نعيش مع رسول الله ﷺ، ونتابع خطاه ونتحرى سنته لا بد وأن نحبه كما أحب أصحاب محمد محمداً، وأن يكون الله ورسوله أحب إلينا من كل شيء، وإلا كنا معنيين بقوله تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[1].

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢٤.

ـ أخرج الطبراني عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إليّ من نفسي، وإنك لأحب إليّ من ولدي، وأني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك. وإذا ذكرت موتي وموتك، عرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفعت مع النبيين، وأني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك؟ فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزل قوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾[1].

ـ وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل بعملهم؟ قال: «أنت يا أبا ذر مع من أحببت». قال: فأني أحب الله ورسوله. قال: «فإنك مع من أحببت». قال: فأعادها أبو ذر فأعادها رسول الله ﷺ[2].

ـ وعند ابن إسحاق، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: مر رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار، وقد أُصيب زوجها وأخواها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأُحد. فلما نعُوا لها (أي أُخبرت بموتهم) قالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا:

---

(١) سورة النساء: الآية ٦٩.

(٢) رواه أبو داود.

خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين. قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، قال: فأشـير لها إليـه، حتى إذا رأته قـالت: كل مصيبة بعدك جلل (أي هينة يسيرة)[1].

ـ وأخرج البيهقي عن الزهري قال: حدثني من لا اتهم من الأنصار، أن رسول الله ﷺ كان إذا توضأ أو تنخم ابتدروا نخـامتــه، فمسحــوا بهــا وجــوههــم وجلودهــم. فقــال رسول الله ﷺ: «لِمَ تفعلون هذا؟». قالوا: نلتمس به البركة. فقال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يحبه الله ورسوله، فليصدق الحديث، وليؤد الأمانة، ولا يـؤذ جاره»[2].

---

(١) البداية ٤/٤٧.

(٢) الكنز: ٨/٢٢٨.

الفصل الرابع

النهج القرآني في التربية الوقائية

إن من يتمعن في النهج التربوي القرآني، ويجري مسحاً للآيات التربوية يجد أن التركيز إنما ينصب على البناء الوقائي للفرد والمجتمع، وعلى تقوية المناعة المكتسبة لدى الناس، تداركاً للأمور والمشكلات، وتحوطاً منها، واتقاء لشرها قبل وقوعها..

إن النهج القرآني يعمد إلى تجنيب الفرد والمجتمع كل الأسباب والعوامل المَرَضية والمؤدية إلى المرض، سواء كانت عقيدية أو نفسية أو فكرية أو جسدية أو خلقية حتى يكون الأصل في حياة الناس العافية وليس المرض، وحتى لا يتحول المجتمع كله بفعل الأمراض والمشكلات المختلفة إلى (مصح أو مستشفى) كما هو الحال اليوم.

كل المجتمعات البشرية اليوم مجتمعات موبؤة عليلة لأنها فقدت مقومات الوقاية فاستشرت فيها الأمراض والعلل بلا حدود. فالعافية في هذه المجتمعات استثنائية وأهل العافية قلة، وهذا بعكس ما عليه المجتمع الإسلامي، حيث العافية هي الأصل والمرض هو الشذوذ.

إن جولة سريعة في الرياض العطرة من كتاب الله تعالى تؤكد لنا وقائية النهج القرآني، من خلال عدد من محطات الإنذار المبكر، التي من شأنها شد الانتباه، والأخذ بكل أسباب الحيطة والحذر، لضمان عدم الإصابة بالمرض والوقوع في العلة.. وفيما يلي نماذج من هذه اللفتات القرآنية الكريمة:

- ففي الوقاية من الشرك قال تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾[١] وقال: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً﴾[٢]، وقال: ﴿ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين﴾[٣].

- وفي وقاية الأنفس والأهل من النار: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾[٤]، ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾[٥].

- وفي الوقاية من الشح والبخل: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[٦].

---

(١) سورة الحج: الآية ٣٠.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٢٢.
(٣) سورة الذاريات: الآية ٥١.
(٤) سورة التحريم: الآية ٦.
(٥) سورة البقرة: الآية ٤٨.
(٦) سورة النحل: الآية ٦٤.

- وفي الوقاية من العدو، كل عدو: ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حِذركم﴾[1]، ﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾[2].

- وفي الوقاية من الربا: يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إنْ كنتم مؤمنين﴾[3].

- وفي الوقاية من الخمر والميسر وغيره: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون..﴾[4].

- وفي الوقاية من قول الزور (والتزوير عموماً): يقول تعالى: ﴿.. واجتنبوا قول الزور..﴾[5].

- وفي الوقاية من الظن: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن، إنّ بعض الظن إثم، ولا تجسسوا، ولا يغتب بعضكم بعضاً، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه، واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾[6].

---

(١) سورة النساء: الآية ٧١.

(٢) سورة المائدة: الآية ٤٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٧٨.

(٤) سورة المائدة: الآية ٩٠.

(٥) سورة الحج: الآية ٣٠.

(٦) سورة الحجرات: الآية ١٢.

ـ وفي الوقاية من الآفات الجنسية: يقول تعالى؛ ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشةً وساء سبيلاً..﴾[1]، ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾[2]، ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض..﴾[3].

ـ وفي الوقاية من الخلاف والتفرق: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات..﴾[4]﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا..﴾[5].

هذه بعض نماذج من النهج القرآني في التربية الوقائية التي يذخر بها كتاب الله تعالى عرضناها هنا على سبيل المثال لا الحصر.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٢.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٥١.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.
(٤) سورة آل عمران: الآية ١٠٥.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

الفصل الخامس

النهج النبوي في التربية الوقائية

والنهج النبوي كالنهج القرآني سواء بسواء لأنه ترجمة وتفصيل له. فهو من جانب يؤكد النمط الوقائي، ومن آخر يفصّل في التدابير الوقائية ويوسّع مساحتها وحجمها..

والمتتبع لخطوات النبوة عبر السيرة والسنة، يجدها ذاخرة بالتدابير والتوجيهات والوصايا الوقائية على كل صعيد. مما يؤكد أن عملية التربية في الإسلام تهدف إلى قطع الطريق على العلة قبل حدوثها، وتقي الأفراد والمجتمع منها قبل وقوعها. وبذلك تبقى البيئة الإسلامية معافاة من الأمراض والعلل والمشكلات والآفات التي تفتك بسائر البيئات الأخرى..

وحريّ بمناهج التربية على الساحة الإسلامية، أن تستشف معالم هذا النهج القويم والفريد في كل مراحل التربية، وفي مختلف مجالاتها العقيدية والفكرية والروحية والحركية والأمنية وغيرها. وبذلك يمكن أن تستقيم كثير من الأمور، وتختفي كثير من المشكلات، التي يعاني منها الجسم الحركي والبنيّة الدعوية في كل مكان.

إن عملية التربية ـ في نطاق الدعوة والحركة ـ يجب أن تكون عملية صياغة وبناء للشخصية الإسلامية. هذه العملية يجب أن تشترك فيها كل العوامل والمواد التربوية اللازمة، مجتمعة غير متفرقة، ومتناسقة غير متعارضة، وضمن إيقاع واحد لتتم ولادة الشخصية بشكل صحيح، ويكون المولود سليماً معافى وغير مشوه.

وفيما يلي نقدم عينة من النصوص النبوية في مجالات التربية الوقائية ليتأكد لنا بالتالي أن الوقائية نهج أصيل في المنهج الإسلامي عموماً..

نصوص وقائية في اجتناب الموبقات:

يقول ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»[١].

ويقول: «اجتنبوا هذه القاذورات[٢] التي نهى الله تعالى عنها. فمن ألم بشيء منها فليستتر بستر الله، وليتب إلى الله. فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله»[٣].

---

(١) البخاري ومسلم.
(٢) كل قول أو فعل يستفحش أو يستقبح.
(٣) رواه الحاكم والبيهقي.

ويقول: «إياكم والخمرة، فإن خطيئتها تفرّع الخطايا كما أن شجرتها تفرّع الشجر»[1].

ويقول: «إياكم والجلوس على الطريق. فإن أبيتم إلا الجلوس، فأعطوا الطريق حقها: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»[2].

ويقول: «إياكم والدخول على النساء»[3].

ويقول: «إياكم والتعري، فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط، وحين يفضي الرجل إلى أهله، فاستحيوهم وأكرموهم»[4].

ويقول: «إياكم والزنا، فإن فيه أربع خصال: يذهب البهاء عن الوجه، ويقطع الرزق، ويسخط الرحمن، والخلود في النار»[5].

ويقول: «اجتنبوا أم الخبائث. فإنه كان رجل ممن كان قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فعلقته امرأة، فأرسلت إليه خادماً

---

(١) رواه ابن ماجه.
(٢) رواه أحمد.
(٣) رواه أحمد.
(٤) رواه الترمذي.
(٥) رواه الطبراني.

تقول: إنا ندعوك لشهادة. فدخل، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتى إذا أفضى إلى امرأة وضيئة جالسة وعندها غلام، وباطية فيها خمر، فقال: إني لم أدعك لشهادة، ولكن دعوتك لتقتل هذا الغلام، أو تقع عليّ، أو تشرب كأساً من الخمر. فإن أبيت صحت بك وفضحتك، قال: فلما رأى أنه لا بد له من ذلك، قال: اسقني كأساً من الخمر، فسقته كأساً من الخمر، فقال زيديني، فلم تزل حتى وقع عليها، وقتل النفس»(١).

نصوص وقائية من فتنة الدنيا:

يقول عليه الصلاة والسلام: «اتقوا الدنيا، فوالذي نفسي بيده إنها لأسحر من هاروت وماروت»(٢).

ويقول: «اتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن إبليس طلّاع رصّاد، وما هو بشيء من فخوخه بأوثق لعبده في الأتقياء من النساء»(٣).

ويقول: «أكثروا ذكر هاذم اللذات - الموت - فإنه لم يذكره

---

(١) رواه ابن حبان.

(٢) الجامع الصغير.

(٣) رواه الديلمي.

أحد في ضيق من العيش إلا وسعه عليه، ولا ذكره في سعة إلا ضيقها عليه»[1].

ويقول: «أكثروا ذكر الموت، فإنه يمحّص الذنوب، ويزهّد في الدنيا. فإن ذكرتموه عند الغنى هدمه، وإن ذكرتموه عند الفقر أرضاكم بعيشكم»[2].

نصوص وقائية من مرض التفرق والخلاف:

يقول عليه الصلاة والسلام: «اتقوا الله وصلوا أرحامكم»[3].

ويقول: «إن الله يسأل عن عشرة ساعة».

ويقول: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث. ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً. ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى يَنكح أو يترك»[4].

---

(١) رواه ابن حبان.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا.

(٣) رواه ابن عساكر.

(٤) رواه أحمد.

ويقول: «إياكم والفتن، فإن وقع اللسان فيها مثل وقع السيف»[1].

ويقول: «إياكم والحسد، فإن ابني آدم إنما قتل أحدهما صاحبه حسداً فهو أصل كل خطيئة»[2].

ويقول: «إياكم والطمع، فإنه هو الفقر الحاضر، وإياكم وما يُعتذر منه»[3].

ويقول: «إياكم والعضة النميمة القالة بين الناس»[4].

نصوص وقائية من مداخل الشيطان:

يقول عليه الصلاة والسلام: «أقلوا الدخول على الأغنياء، فإنه أحرى أن لا تزدروا نعمة الله عز وجل»[5].

ويقول: «لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها»[6].

ويقول: «لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم، ولا يدخل عليها رجل إلا ومعها محرم»[7].

---

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) رواه ابن عساكر.

(٣) رواه الطبراني.

(٤) رواه القالة: كثرة القول وإيقاع الخصومة.

(٥) رواه الحاكم.

(٦) رواه أحمد.

(٧) رواه أحمد.

ويقول: «النظرة سهم مسمومة من سهام إبليس، من تركها من مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه»[1].

ويقول: «إياكم وفضول النظر فإنه يبذر الهوى ويولّد الغفلة»[2].

ويقول: «باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء، فأنه إذا كانت المعاينة واللقاء كان الداء الذي ليس له دواء»[3].

ويقول: «إياكم والهوى، فإن الهوى يُصم ويعمي». (للسجزي في الإبانة عن ابن عباس).

ويقول: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه»[4].

ويقول: «أكثروا من تلاوة القرآن في بيوتكم، فإن البيت الذي لا يُقرأ فيه القرآن، يَقِل خيره، ويكثر شره، ويضيق على أهله»[5].

وعنه أنه: «نهى عن الغناء والاستماع إلى الغناء، وعن

---

(١) رواه الطبراني والحاكم.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) للبلوى.

(٤) رواه أحمد.

(٥) رواه الدارقطني.

الغيبة والاستماع إلى الغيبة، وعن النميمة والاستماع إلى النميمة»[1].

ويقول: «إياكم والكذب، فإن الكذب مجانب للإيمان»[2].

ويقول: «إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً.. الحديث». متفق عليه.

نصوص وقائية من الغلو والتطرف:

يقول ﷺ: «إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين»[3].

ويقول: «إن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»[4].

ويقول: «قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه»[5].

وأنه: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أوسطهما».

---

(١) رواه للطبراني.

(٢) رواه أحمد.

(٣) رواه أحمد.

(٤) من حديث صحيح.

(٥) للبغوي وغيره.

ويقول: «إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق»[1].

ويقول: «إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»[2].

ويقول: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه»[3].

ويقول: «من يُحرم الرفق يحرم الخير كله»[4].

نصوص وقائية من الزواج الفاشل:

يقول ﷺ: «تخيّروا لنطفكم فإن العرق نزّاع، وفي رواية دساس». ذكره الشريف الرضي.

ويقول: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[5].

ويقول: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خير له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله»[6].

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه البزار.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه مسلم.

(٦) رواه ابن ماجه.

ويقـول: «إياكم وخضراء الـدِّمَنْ؟» قالـوا: وما خضراء الـدمن يـا رسـول الله؟ قـال: «المـرأة الحسنـاء في المنبت السوء»[1].

ويقول: «إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه، ألا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»[2].

ويقول: «تزوجوا من فقرائكم يغنيكم الله من فضله».

(١) رواه الدارقطني.

(٢) رواه الترمذي .

الفصـــل الســـادس

نمـاذج من المعالجـات الوقـائيـة لبعض الآفـات الأخلاقية

في هذا الفصل سأتناول نماذج من الآفات الاجتماعية مبيناً النهج الوقائي الذي اعتمده الإسلام في مواجهتها ومكافحتها والقضاء عليها..

الخمرة (أم الخبائث):

تُعتبر الخمرة (المسكرات عمومـاً) مدخـلاً لعالم الخبـائث والفـواحش والانحرافـات المختلفـة. فـوبـاء تعـاطي الخمرة والإدمان عليها وبـاء عات وقـديم.. كان في الجـاهلية قبـل الإسلام، وهو الآن كائن ومتفاقم في كل أنحاء المعمورة..

كل المحاولات التي قامت لمكافحة هذا الوباء قديماً وحديثاً باءت بالفشل، إلا التجربـة الإسلاميـة التي نجحت نجاحـاً باهراً وجذرياً..

من التجارب الحديثة الفاشلة، التجـربة التي قـامت بها (الـولايـات المتحـدة الأمـيركيـة) عـام ١٩١٩، حيث أصـدر (الكونجرس) قانونـاً يُحرِّم صناعة الخمر سراً وجهـراً، ويمنع

بيعها وتصديرها واستيرادها ونقلها وحيازتها، ويفرض العقوبات الشديدة بحق المخالفين. ووضعت الحكومة لتنفيذ القانون أمكانات كبيرة. فأنفقت على الدعاية الإعلامية والتعليمية ما يزيد عن ٦٠ مليون دولار. ونشرت من الكتب ما يزيد عن ١٠ ملايين صحيفة. وأنفقت لتنفيذ القانون حوالي ٢٥٠ مليون جنيه. وكانت النتيجة بعد كل ذلك، انتشار آلاف الحانات السرية، وازدياد عدد شاربي الخمر أضعافاً وسجن حوالي نصف مليون شخص لمخالفتهم القانون، مما دفع إلى إصدار قرار عام ١٩٣٣ يقضي بإلغاء حظر الإباحة بسبب الفشل الذريع[١].

إن كل التجارب التي قامت للحدّ من تناول الخمرة فشلت لكونها عالجت القضية من جانب واحد، ولم تعالجها من كل الجوانب.. فالعلاج لم يلحظ معالجة النفوس البشرية التي تعودّت الإدمان، فبقي المرض مسيطراً عليها، بالرغم من قوانين المنع والحظر.

أما الإسلام فقد اعتبر أن القضية قضية الإنسان أولاً.. قضية بناء مقومات الخير فيه، واجتثاث عوامل الشر منه، إضافة إلى الاحتياطات الأخرى اللاحقة التي لحظت بعضاً منها القوانين الوضعية.

---

(١) مع الطب في القرآن - إصدار مؤسسة علوم القرآن.

ولهذا كان النهج الإسلامي في معالجة هذا الوباء الخطير فريداً وناجحاً..

- ففي المرحلة الأولى انصب الاهتمام على ايجاد الاستعداد النفسي العقيدي والقابلية الذاتية للتلقي أولاً.. التلقي بشفافية وتسليم ورضى..

في عالم (البث الإذاعي) لا يكفي أن يكون جهاز الإرسال جيداً، فلا بد وأن يكون جهاز الاستقبال كذلك. والعملية التربوية - كيما تكون ناجحة - لا بد وأن يكون مصدر التوجيه قوياً وفاعلاً، والمادة التوجيهية كذلك، إضافة إلى قابلية المتلقي وانفعاله مع التوجيه.. وكل خلل في واحدة منها سيؤدي إلى الفشل والإخفاق حتماً..

فالتلقي عن الخالق غير التلقي عن المخلوق، والانفعال والتفاعل مع الوحي غيره مع القانون، واستجابة الإنسان لمن يؤمن به ويحبه ويعظّمه ويعبده ويخشاه غير استجابته لرجل القانون، خوفاً من عقوبته، وغير تجاوبه مع قدرة بشرية محدودة يمكن أن يخادعها أو يختفي - لدى ارتكابه للمعصية - من عينها؟؟.

ولكن أنى له ذلك، إنْ كان الرقيب هو الله، وان كان الحسيب عالم الغيب والشهادة، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ﴿يعلم خائنة الأعين ما تخفي

الصـــدور﴾[1]، ﴿فـإنــه يعلم السـر وأخفى. . . ﴾[2]، ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾[3]، ﴿إنَّ الله لا يَخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. . . ﴾[4].

إن بلوغ الإنسان مرحلة التلقي للتنفيذ هو البداية الصالحة للتفاعل مع العلاج، لتبدأ مرحلة جديدة.

ـ وفي المرحلة الثانية كانت لفتة القرآن إلى الخمرة ومنابعها في معرض المقارنة مع الرزق الحلال الطيب مَطعـماً ومشرباً، ولغاية تسديد الفكر والتصور وترشيده إلى الأفضل والأحسن. فقال تعالى: ﴿ومن ثمـرات النخيل والأعنـاب تتخذون منـه سكراً ورزقاً حسناً﴾[5].

هذه اللفتة الكريمة العابرة من شأنها أن تنساب برفق في أعـماق النفس، وحنايـا الذهن، فتحفـزهما إلى تلقي المـزيـد بشغف وشوق، ضمن عملية حوار: بين ما هو كائن وبين ما يجب أن يكـون. . إنها عملية تجاذب بين العـوامل النفسيـة المختلفـة، من شأنها أن تستنهض عـوامـل الخـير وتستحثهـا وتقويها. وهذا ما تم فعلاً، وما عبر عنه عمر بن الخطاب في هذه المرحلة بالذات، حيث هرع إلى رسول الله ﷺ سائلا متلهفاً: (اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً).

---

(١) سورة غافر: الآية ١٩.
(٢) سورة طه: الآية ٧.
(٣) سورة النمل: الآية ٢٥.
(٤) سورة آل عمران: الآية ٥.
(٥) سورة النحل: الآية ٦٧.

ـ ولا يطول الانتظار حتى يأتي الجواب من خلال لفتة كريمة أخرى أكثر وضوحاً تتجلى في قوله تعالى: ﴿يسئلونك عن الخمر والميسر، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما﴾[1] وفي هذه اللفتة ـ قضيّة جديدة ـ تبعث على التفكر. . أنها قضية الضرر ـ المادي والمعنوي ـ المترتب على شرب الخمر، والذي جاء التعبير عنه بالإثم، ليكون وقعه في الوجدان والشعور وقعاً عميقاً يتعدى حدود الإضرار المادي.

ـ ثم ينتقل البرنامج الوقائي إلى مرحلة أكثر تقدماً. . تبدأ فيها المفاصلة (المؤقتة) بين الخبيث والطيب، تمهيداً للمفاصلة الدائمة والكاملة والجذرية بينهما، لأنهما في الحقيقة صنوان لا يلتقان، فيقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾[2].

ـ وعندما يتحقق التفاعل الكامل بين مواد المنهج ومراحله المختلفة، وبين الإنسان المسلم، ويبلغ مرحلة اللاعودة إلى الوراء، يأتي الأمر الإلهي والحكم الشرعي القطعي بالتحريم في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا: إنما الخمر والميسر والأنصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون *

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٩.

(٢) سورة النساء: الآية ٤٣.

إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة، فهل أنتم منتهون؟ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا، فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾[1].

ولم يتأخر جواب المسلمين على سؤاله تعالى: ﴿فهل أنتم منتهون﴾؟ لأن النفوس كانت قد تهيأت، ولأن الإرادات كانت قد شُحذت، ولأن الأفئدة كانت قد استضاءت واستيقنت. فجاء الجواب على لسان عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إنتهينا يا رب).

جاء في تفسير ابن كثير، عن أبي طعمة، سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول: (خرج رسول الله ﷺ إلى المربد، فخرجت معه، فكنت عن يمينه، وأقبل أبو بكر فتأخرت عنه فكان عن يمينه، وكنت عن يساره. ثم أقبل عمر بن الخطاب، فتنحيت له فكان عن يساره، فأتى رسول الله المربد، فإذا بزقاق على المربد فيه خمر. قال ابن عمر؛ فدعاني رسول الله بالمدية، وما عرفت المدية إلا يومئذ. فأمر بالزقاق فشُقّت، ثم قال: «لُعنت الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وعاصرها ومعتصرها وآكل ثمنها»[2].

---

(١) سورة المائدة: الآيات ٩٠-٩٢.

(٢) رواه أحمد.

لقد كان تلقي المسلمين للحكم الشرعي في الخمرة تلقياً كاملاً وفورياً، جعلهم عندما جاءهم أمر التحريم، يبصقون ما في أفواههم من بقايا الخمرة، ويسكبون ما في القلال من الخمر على الأرض، حتى فاضت بها شوارع المدينة، وبذلك أُقفل ملف هذا الوباء العاتي والمرض الخطير.

الشذوذ الجنسي (اللواط):

ومن الأمراض الخبيثة والأوبئة الفتاكة الخطيرة التي تتهدد المجتمعات كافة بأوخم العواقب النفسية والحسية وباء الشذوذ الجنسي، وفي مقدمته اللواط..

هذا الوباء قديم قدم الإنسان والتاريخ.. وتسميته التي تعود به إلى عهد النبي لوط عليه السلام الذي كافحه تدل على ذلك..

وجاء الإسلام، وحكى القرآن الكريم قصة هذا المرض الخطير في أكثر من موضع، وعرض له رسول الله ﷺ في مواقع كثيرة ومختلفة من أحاديثه الشريفة.

وبدأت رحلة أخرى على طريق استئصال هذا الداء واجتثاث هذا الوباء على النحو الوقائي الجذري المعتمد، وخلاف ما لجأت إليه واعتمدته القوانين الوضعية المختلفة..

فكيف كان ذلك؟؟.

ـ في المرحلة الأولى ككل عملية تكوّن وقائي، لا بد من إرساء كل المقومات المساعدة على التجاوب مع العلاج، حتى لا يبطل مفعوله وينعدم تأثيره. هذه المقومات وكما أسلفنا، تعتمد ـ أساساً ـ على الإيمان بالله تعالى وما يتفرع عنه من مقتضيات وتكاليف ومداخلات مختلفة، من شأنها أن تحضر الإنسان ليكون عبداً لله يحل حلاله ويحرم حرامه، ولتصبح طاعة الله ورسوله أحب عنده وأوجب من حب وطاعة ما سواهما . .

فوق هذه الأرضية الصلبة، والقاعدة الراسخة، يبدأ الإسلام علاجه وهو مطمئن إلى النتيجة. أما إذا بُدىء العلاج، والعقيدة ضعيفة، والإيمان مهزوز، والنفس غير مطمئنة ومستيقنة ومستعدة للتلقي والتنفيذ، فالعملية تكون فاشلة مهما تضافرت الأسباب الخارجية لإنجاحها.

ـ بعد ذلك تبدأ مرحلة جديدة. . مرحلة إيحاء نفسي بالغة التأثير والأثر، عبر الأسلوب القصصي القرآني الذي عرض ـ وفي أكثر من موقع ـ لقوم لوط الذين كانوا يمارسون الشذوذ علانية ومن غير حياء ولا خجل. . كل ذلك في إطار إيقاع ترهيبي تقشعر منه الأبدان، وتؤدي كل جزئية فيه دورها الفاعل في معالجة جذور هذا الوباء واستئصاله من واقع حياة الإنسان.

فلنستعرض الآن بعضاً من هذا القصص التربوي

الوقائي الأخاذ الذي حفل به كتاب الله تعالى وجاءت الإشارة إليه في نحو أربعة عشر سورة، تأكيداً على خطورة هذا الوباء..

قال تعالى: ﴿ولوطاً إذ قال لقومه: إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا: ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين * قال: ربِ انصرني على القوم المفسدين * ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنّا مهلكوا أهل هذه القرية إنّ أهلها كانوا ظالمين * قال إنّ فيها لوطاً، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلاّ امرأته كانت من الغابرين * ولمّا أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لا تخف ولا تحزن إنّا منجّوك وأهلك إلاّ امرأتك كانت من الغابرين * إنّا منزلون على أهل هذا القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون * ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون﴾[1].

جاء في تفسير هذه الآيات: إن عقوبة قوم لوط ـ بسبب فعلتهم الشنعاء ـ إحراقهم بنار وكبريت نازل من السماء، وقلب الأرض بهم حيث أصبح عاليها سافلها، إضافة إلى الرجم بالحجارة..

---

(١) سورة العنكبوت: الآيات ٢٨ ـ ٣٥.

وجاء في موقع آخر من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿كذبت قوم لوط بالنذر * انا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر﴾[1].

وفي موقع آخر: ﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب * وجاءه قومه يُهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات، قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد * قالوا: لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد * قال لو أنّ لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد * قالوا يا لوط إنّا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم، إنّ موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب * فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسوّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾[2].

وفي موقع آخر: ﴿كذبت قوم لوط المرسلين * إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون * إني لكم رسول امين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب

---

(١) سورة القمر: الآية ٣٣.

(٢) سورة هود: الآيات ٧٧ - ٨٣.

العالمين * أتأتون الذكران من العالمين * وتـذرون ما خلق ربكم من أزواجكـم بل أنتم قوم عادون * قالوا: لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين * قال إني لعملكم من القالين * رب نجني وأهـلي مما يعملون * فنجينـاه وأهله أجمعين * إلاّ عجوزاً في الغابرين * ثم دمرنا الآخرين * وأمـطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين * إنّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾[1].

- بعد هذا ينتقل الإسلام بالمعالجة إلى مرحلة يسد فيها كل المنافذ التي تؤدي إلى الوقوع في هذا الـوباء الخـطير. . . من ذلك:

أ - الحض على الزواج المبكر، حيث يقول الرسول ﷺ: «يا معشر الشباب من استـطاع منكم الباءة فليـتزوج، فإنـه أغض للبصر، وأحصن للفرج، فمن لم يستطع فعليـه بالصوم فإنه له وجاء»[2].

ب - التحذير من الفراغ والحض على ملئه بما هو صالح ومفيد، فيقول عليه الصلاة والسلام: «أخوف ما أخاف عليكم الصحة والفراغ».

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ١٦٠ - ١٧٤.

(٢) رواه الجماعة.

ج ـ اجتناب التعرّي، لقوله ﷺ: «إياكم والتعري، فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط وحين يفضي الرجل إلى أهله، فاستحيوهم وأكرموهم». (رواه الترمذي).

د ـ التحذير من مجالسة ومعايشة المردان، لكونها تجر إلى الشهوة وتوقع في الفتنة. قال الحسن بن ذكوان: «لا تجالسوا أولاد الأغنياء فإن لهم صوراً كصور العذارى، وهم أشد فتنة من النساء». ودخل سفيان الثوري الحمام فدخل عليه صبي حسن الوجه، فقال: (أخرجوه عني فأني أرى مع كل امرأة شيطاناً، ومع كل أمرد سبعة عشر شيطاناً). وجاء رجل إلى الإمام أحمد ومعه صبي حسن الوجه فقال له: (من هذا منك؟) قال: ابن أختي. قال: (لا تجيء به إلينا مرة أخرى. ولا تمشِ معه بطريق لئلا يظن بك من لا يعرفك ويعرفه بسوء). وقال سعيد بن المسيب: (إذا رأيتم الرجل يحد النظر إلى الغلام الأمرد فاتهموه).

هـ ـ إلتزام الحدود الشرعية في العلاقات بين الأفراد، فكل تفريط وإفراط يمكن أن يؤدي إلى انحرافات.

ففي كتاب مشكلات الدعوة والداعية قلت في هذا المجال: (الأخوة الإسلامية هي العلاقة الطبيعية الفطرية التي لا تجنح جنوح (العشق) ولا تبلغ مبلغ (الوله والتيم) بل ينبغي أن لا تصل إلى حد ذوبان الأخ بأخيه، لأنها ان وصلت إلى هذا فقدت ضوابط الصيانة والحدود الشرعية، ووقع ما لم يكن

بالحسبان، والعاقل من تدارك الأمر قبل فوات الأوان، ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه)[1].

- بعد هذه الإجراءات الوقائية التي يتخذها الإسلام لتحصين الأفراد والمجتمع من هذا الوباء الخطير، يلجأ إلى أسلوب وقائي آخر من خلال العقوبة الرادعة الزاجرة..

فقد اجمع العلماء على أن اللواط زنى، ولكنهم اختلفوا نسبياً في تحديد العقوبة:

قال البغوي: (اختلف أهل العلم في حد اللوطي. فذهب قوم إلى أن حد الفاعل هو حد الزنى: إن كان محصناً يُرجم، وإن لم يكن محصناً يُجلد مائة جلدة. وذهب قوم إلى أن اللوطي يُرجم سواء كان مُحصناً أو غير محصن. وذهب البعض إلى وجوب التعزير حسب ما يراه الإمام رادعاً للمجرم).

فمن القائلين بأن حده حد الزنى: سعيد بن المسيب، وعطاء بن أبي رياح، والحسن، وقتادة، والنخعي، والثوري، والأوزاعي، والإمام يحيى، وغيرهم.

ومن القائلين بالقتل مطلقاً: أصحاب رسول الله ﷺ، والناصر، والقاسم بن إبراهيم، والشافعي في قول..

---

(١) الحدود الشرعية للعلاقات الأخوية (كتاب مشكلات الدعوة والداعية) ص: ٢٠٦.

ومن القائلين بالتعزير: أبو حنيفة، والمؤيد بالله، والمرتضى، وغيرهم.

وقد رجح الشوكاني مذهب القائلين بالقتل، وضعف المذهب الأخير الذي قال بالتعزيز لمخالفته للأدلة..

من ذلك ما رواه عكرمه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»(١).

واختلف العلماء في كيفية قتل اللوطيين:
- فروي عن أبي بكر وعلي: أنه يقتل بالسيف، ثم يحرق. لعظم المعصية.
- وذهب عمر وعثمان: إلى أنه يُلقى عليه حائط.
- وذهب ابن عباس: إلى أنه يُلقى من أعلى حائط في البلد.
- وحكى البغوي عن الشعبي، والزهري، ومالك، وأحمد، وإسحاق، أنه يرجم.

وعقوبة الموت قد تبدو لأول وهلة قاسية ومخيفة، وبخاصة أنها تطال الفاعل والمفعول به، إلا أنها أصبحت اليوم - وبعد ظهور وباء «الإيدز والسيدا والهيربس» - إعجازاً

---

(١) رواه الخمسة إلا النسائي.

وإنجازاً فريدين يكفيان في إقامة الحجة على البشرية كلها بقوامة الإسلام..

وحسبي أن انقل هنا ما أورده الدكتور «سعيد الصائغ» في كتابه (الإيدز مرض الشباب) والذي يبين فيه بكل وضوح أن (اللواط) هو السبب الرئيسي والأهم لهذا الوباء الخطير.

يقول تحت عنوان: (المرشحون للإصابة بمتلازمة القصور في المناعة المكتسبة، الإيدز) يصيب هذا المرض فئات معينة من الناس، وأكثر هذه الفئات تعرضاً:

١ ـ اللوطيون. وتتعدى نسبتهم الـ ٧٠ بالمائة من المجموع العام.

٢ ـ المدمنون على المخدرات بواسطة الحقن، ونسبتهم ١٧ بالمائة.

٣ ـ والنسبة الباقية تتوزع على: المتحدرين من أصل اسباني، أو المهاجرين إلى الولايات المتحدة من جزيرة (هايتي) بالذات[1].

وفي موضع آخر يقول: وأما هؤلاء المرشحون للإصابة بالإيدز، أو من يمكن أن نسميهم بالفئات البشرية الخطيرة، أي الأكثر تعرضاً لهذه الإصابة فهم:

---

(١) الدكتور سعيد الصائغ ـ الإيدز مرض الشباب ـ صفحة ٤٠.

١ ـ اللوطيون الذكور، وهم الأكثر تعرضاً للإصابة بهذا المرض على الإطلاق. إن فيروس المرض الذي يصيبهم يؤدي إلى انخفاض في الخلايا اللمفاوية (ت) المساعدة والمحرضة، وتؤدي هذه الحالة إلى اعتلال الغدد اللمفاوية، أي إلى انتفاخ هذه الغدد وتضخمها، مما يفضي إلى مجموعة من الأمراض، وقد يتطور هذا المركب من الأمراض إلى المرض نفسه الذي نحن بصدده.

أما أهم وأوضح الخصائص التي تزيد في نسبة تعرض اللوطيين الذكور للإصابة فهي:

أ ـ كثرة الشركاء في الفعل الجنسي الشاذ عندهم. فكلما ازداد عدد الشركاء الذين يمارسون الجنس فيما بينهم زاد احتمال الإصابة بهذا المرض.

ب ـ اللوطوين الذكور المستقبلون للقضيب في الشرج (Receptive Homosexuals) فهؤلاء اللوطيون معرضون للإصابة أكثر من اللوطيين الفاعلين، أي الذين يقومون بالعمل الجنسي الشاذ.

ج ـ اللوطيون المستقبلون لقبضة اليد في الشرج (Fisting) وهذه القبضة هي نوع من الممارسات الشاذة التي يستعملها اللوطيون فيما بينهم قبل أو بعد القيام بالعمل الجنسي نفسه. ونعني بالقبضة إدخال قبضة اليد في الشرج. وكثير

ما يسبب هذا الإدخال رضاً وتمزقاً في نسيج الشرج مما يُسهل التلوث والتلويث بفيروس الإيدز.

٢ ـ المدمنون على المخدرات بواسطة الحقن. ويمثل هؤلاء نسبة ١٧ بالمائة من المرشحين للإصابة بمرض الإيدز. خاصة أن هؤلاء يكونون إجمالاً من اللوطيين أو من ثنائيي الجنس (أي الذين يمارسون الجنس مع الرجل والمرأة على السواء) وهذا ما يسهل انتقال الفيروس بين أفراد هذه الفئة، إذ أن الحقن بالوريد يشكل طريقاً سهلة جداً لغزو فيروس هذا المرض لدم الضحية المدمن.

٣ ـ سكان جزيرة هايتي: فقد بدأ هذا المرض ينتشر في الجزيرة منذ عام ١٩٨٠ في مدينتي: كارفور وبورت اوبرنس، وهما مدينتان معروفتان بالبغاء عند النساء وعند الرجال على السواء.

أما عن آلية العدوى في هايتي فهي تعود إلى الإتصال الجنسي الشاذ، وإلى استعمال الحقن والابر غير المعقمة[١].

وفي موضع آخر يقول الدكتور صائغ، وبعد أن يعرض لعدد من الاجراءات الوقائية، يقول: (هذه الإجراءات الوقائية بنيت على أساس وجود اللواط. هذا العمل الشاذ المحرم دينياً

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٤١ و ٤٢.

كواقع، ولكننا إذا أردنا أن نعلن صادقين، إجراءات وقائية شاملة وحاسمة، فليس علينا إلا أن نعمل على التحذير من هذه الآفة الاجتماعية والاخلاقية والصحية المحرمة، ففي ذلك حل عام، وربما حل نهائي لمرض الإيدز[1].

ويختم الدكتور صائغ كلامه فيقول: (المنطق يجرنا إلى الاعتراف بأن هذا الفيروس لم يكن ليحضنه غير مجتمع دنس، كقوم لوط مثلاً. فهم كانوا يعبثون بالمحرمات ويقترفون من الرذائل ما تندى له الجباه. ألم يصفهم الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ولوطاً إذا قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر﴾ وفي هذا الوصف توضيح لشذوذ هؤلاء الفاسقين، وقد كرر تعالى ذلك في آيات آخرى: ﴿أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون﴾، ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون﴾.

هذا المجتمع الموبوء بكل أنجاس الملذات لم يكن ليرعوي عن الشر أبداً، فلم ينتصح بما قاله لوط ولا بما أتى به إليهم، فغضب الله، ونالهم منه، كما نال بلدتهم، مما حولها إلى (كبريت وملح، أرضها حريق لا تزرع ولا تنبت ولا يطلع فيها

---

(١) المصدر السابق.

عشب)[1] (وليكن الزواج مكرماً عند كل واحد، والمضجع غير نجس، وأما العاهرون والزناة فسيدينهم الله)[2].

ولكن الفاسقين رفضوا النصائح كلها فكان غضب الله عليهم إغراقاً وحرقاً[3].

---

(١) التثنية (٢٩ و ٣٠: ٢٣ ـ ٢٤) وهذا المكان هو ما يعرف ببحيرة لوط حالياً.

(٢) عبرانيين ١٣ : ٤.

(٣) الإيدز مرض الشباب، صفحة ٢٣١. فما بعد.

الفصـــل الســـابع

نماذج من الآفات
الحركية وعلاجها الوقائي في الإسلام

أود في هذا الفصل أن أعرض لنماذج مختارة من الآفات والأمراض والمشكلات الحركية التي تطفو وتظهر على مسرح العمل الإسلامي وفي بنية الحركات الإسلامية المعاصرة. وذلك بهدف التعرف إلى أسبابها وعواملها وللتأكيد على أنها من نتائج القصور أو الخلل التربويين، وبسبب عدم اعتماد النهج الوقائي في التربية والتوجيه والتخطيط، وفي معظم مجالات العمل الإسلامي.

أولاً: الانشقاقات الداخلية في الحركات:

تُعتبر الانشقاقات الداخلية من أخطر الآفات التي تصيب الساحة الإسلامية كما تصيب غيرها. فهي بمثابة المعول الذي يتسبب بهدم الحركة واستنزافها واجهاضها من الداخل..

قد لا تقوى معاول الأعداء مجتمعة أن تنال من الحركة ما بقيت محصنة من داخلها، وقد تجهز عليها فتنة داخلية فتجعلها هباء منثوراً.

وإذا قمنا بدراسة موضوعية دقيقة لاستكشاف الأسباب التي تقف خلف هذه الظاهرة لخرجنا بجملة أمور، منها:

ضعف المستوى التربوي:

فهنالك خلل ما يجب أن يدفع لاستكشافه ومعالجته. فقد يكون من المنهج التربوي، وقد يكون من المربي، وقد يكون من الإثنين معاً. ونجاح التربية مرتهنة بسلامة المنهج وصلاحية المربي معاً.

وقد يتأتى ضعف المستوى التربوي من قصور في التخطيط أو خلل في خطط العمل، بحيث يتضخم جانب من جوانب العمل على الجوانب الأخرى. وقد يكون بسبب استنزاف الحركة في معارك جانبية لا طائل تحتها ولا فائدة منها، أو قد تستهلك كثيراً من طاقاتها في مشاريع لا تقع في الدرجة الأولى من حيث الأهمية والأولوية[1].

إن ضعف المستوى التربوي هو الخرق الذي يمكن أن

---

(١) حبذا لو يتم وضع دراسات موضوعية لما آلت إليه أحوال بعض الحركات الإسلامية المعاصرة التي طغت عليها الاهتمامات والمشاغل السياسية والعسكرية فأصبحت اداة ضمن اللعبة السياسية العامة، للاستفادة من هذه التجارب وحتى لا يلدغ المسلمون من جحر عشرات المرات.

تدلف منه كل العلل والأوبئة والمشكلات إلى جسم الحركة، وهو الذي يفتح الباب على مصراعيه أمام الفتن.

فهو المناخ المناسب للآفات المساعدة على حصول الهزات والانقسامات في حياة الأفراد والجماعات والحركات، كالغيبة والنميمة، وتتبع العورات، والنقد الهدام، والتشكيك والإرجاف، وعدم التماس الأعذار، وعدم التبين، والتعصب للرأي، والمكابرة والعناد، وطرح الخلافات في غير مواطن طرحها، وإنشاء المحاور وتحريكها، وتحويل الخلافات المبدئية إلى خلافات شخصية، إلى ما هنالك من آفات وعلل لا تبقي ولا تذر..

إن ضعف التربية يعني تدني مستوى التقوى والورع.. يعني ضعف قوامة الشريعة على السلوك والأعمال والأقوال والتصرفات عموماً، وهذا يؤدي بالنتيجة إلى السقوط في حبائل الشيطان وشراك الهوى ومضلات النفس الامارة بالسوء، مما فيه هلكة الفرد والجماعة..

إن ضعف التقوى والورع مدخل إلى الترخص واستصغار الذنوب والتساهل مع النفس، مما يؤدي في النتيجة إلى ارتكاب الموبقات والكبائر، تحت شعارات ومبررات وعناوين عريضة، كلها في الحقيقة من تلبيس إبليس. وهذا ما أشار إليه أنس رضي الله عنه حين قال: (إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في

أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات)[1].

احتراف النقد والغيبة والنميمة:

ومن عوامل الفتن التي تشق الصفوف، وتنقض الغزل، وتأتي على البنيان، احتراف النقد وامتهان الغيبة والنميمة، وتتبع العورات، وتطاول الألسن، وشيوع ذلك وانتشاره واستساغته وعدم استرذاله، بحجة تصحيح الأوضاع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

هذا الداء العضال ابتليت به الحركات الإسلامية على امتداد الساحة محلياً وإقليمياً ودولياً، وكان من نتيجته في كل حين: إحباط النفوس، وتصدّع الصفوف، وفقدان الثقة، وانكشاف الضعف أمام العدو.

من هنا كان التحذير القرآني والنبوي من هذه الآفة قوياً صارخاً. فقال تعالى: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلّا قليلا * ملعونين أينما ثُقفوا أُخذوا وقُتّلوا تقتيلا * سنّة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلا﴾[2].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٦٠ ـ ٦٣.

وعن سفيان بن عبدالله رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، حدثني بأمر اعتصم به، قال: «قل ربي الله ثم استقم» قلت: يا رسول الله: ما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال: «هذا»[1].

ومن الأمثلة القريبة المعاشة على ما تقدم: أن حركة من الحركات الإسلامية أصيبت بهزيمة ـ سياسية أو عسكرية ـ مما فتح الباب على مصراعيه أمام هذا الداء العضال. بدأ بالتلاوم على مستوى القيادة، ثم امتد إلى القاعدة حتى نخر بنيتها نخراً!.

كان هؤلاء لا يتقون الله في أعراض إخوانهم... يُشرِّحونهم كما يُشرح الطبيب الجثة، أو كما يقطع الجزار الدابة، من غير تحفظ في التعبير، أو أدب في الخلاف، أو موضوعية في النقد، أو تخير للأطر التي يجب أن تطرح فيها مقولاتهم ناسين قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾[2] وناسين قول رسوله ﷺ وتحذيره: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٧٠ و ٧١.

ما يظن أن تبلغ به ما بلغت، فيكتب الله بها سخطه إلى يوم القيامة»[1].

فكانت النتيجة أن انشق الصف، وتصدع البنيان، وأصبح صف الحركة مرتعاً للشيطان، ولا حول ولا قوة إلا بالله الملك الديان..

والإمام النووي رحمه الله خصص في كتابه (رياض الصالحين) باباً أسماه (باب ما يباح من الغيبة) فقال:

(إعلم أن الغيبة تباح لغرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا بها، وهو ستة أبواب:

الأول ـ التظلم ـ فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان أو غيره لإنصافه.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى الصواب.

الثالث: الاستفتاء ـ لتحصيل الحق ودفع الظلم.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم.

الخامس؛ ذكر الفاسق بما فيه، بعد أن يكون مجاهراً بفسقه.

السادس: جواز تعريف الإنسان بلقب معروف به

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذي.

كالأعمش والأعرج والأحول، وإذا أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى[1].

اهتزاز الثقة بالقيادة:

ومن العوامل المساعدة على تصدع الحركات وحدوث الانشقاقات، اهتزاز الثقة بالقيادة، بما يجرح جدارتها وأهليتها، أو ينال من استقامتها ومصداقيتها لدى القاعدة.

وقد لا يترتب على هذا الأمر شيء خطير وشر مستطير لو أن هذه القيادة أخلت موقعها لغيرها، وانسحبت من تلقاء نفسها، إذن لسلم البنيان من الأذى والتصدع.

إلا أنه في بعض الأحيان يكون العكس هو الصحيح، فيتشبث القائد بمنصبه ويستغل موقعه أبشع استغلال.. فيقيم المحاور، ويحرك الصراعات ويديرها، ويحوّل مجاري الخلافات لينجو هو ولو هلكت الجماعة بكاملها! نعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم»[2].

وفي حالة أخرى، قد تكون القيادة فيها مظلومة، والخروج عليها محض افتئات وافتراء، وتعسف واجتراء. ومع كل ذلك

---

(١) نقل باختصار شديد عن المرجع المذكور في المتن.

(٢) رواه أبو داود وابن حبان.

فإنه يحسن بالقيادة أن تحيل القضية إلى جهة ثالثة لفصل الخطاب. فتكون بذلك في مأمن من اللوم والعتاب، وأبعد عن الشبهة والحساب.

إن القيادة كي تبقى في مأمن من سهام النقد والتجريح، وتبقى قيادة بالمعنى الصحيح، لا بد وأن تكون في منأى عن الشبهات، وبخاصة ما يتصل منها بالشؤون المالية. وعليها أن تكون الأزهد والأبعد عن كل ما يشتم منه رائحة النفعية. وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»[1].

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون[2] عليهم ويصلون عليكم. وشرار أئمتكم الذين تُبغضونهم ويُبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم». قلنا: يا رسول الله: أفلا نُنابذهم؟ قال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة»[3].

نشوء مراكز قوى مختلفة:

ومما يتسبب بالشقاق والانشقاق قيام مراكز قوى متعددة في

---

(١) رواه ابن ماجه وغيره.

(٢) أي تدعون.

(٣) رواه مسلم.

الحركة، إضافة إلى ضعف في القيادة يحول بينها وبين ضبط النزاعات، وتحقيق التوازنات، ولجم النوازع والتطلعات، وحسم الخلافات والصراعات.

وأسباب نشوء مراكز القوى متعددة وكثيرة.. فقد يطغى الجانب السياسي ويتعاظم شأن القائمين به أشخاصاً وممارسات.. وقد يطغى الجانب العسكري فيتولد في المسؤولين عنه شعور العجب والفوقية، كما حصل يوماً بالنسبة للجهاز الخاص في مصر، وتسبب بأسوأ المشكلات، حيث دفعت الحركة بنتيجة ذلك ثمناً باهظاً، وكان مدخلاً إلى محنة مريرة عاتية..

ومن الأسباب وجود عوامل الكبر والغرور في النفوس، أو حب العظمة وتسلق جدران الزعامة بأي ثمن. فإذا توافق ذلك مع ظرف من الظروف، قويت هذه العوامل ونمت وبلغت مرحلة اللاعودة، حيث يُصاب أصحابها بداء العتو والشموخ الذي أصيب به إبليس حين قال: «أنا خير منه، خلقتني من نار، وخلقته من طين»[1].

إن طاعة القيادة في الإسلام من طاعة الله ورسوله بحكم قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله، وأطيعوا

(١) سورة صٓ الآية: ٧٦.

الرسول، وأولي الأمر منكم﴾[1] وبحكم قوله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني»[2].

والطاعة هذه تلزم كل الأفراد على مختلف مواقعهم ومراكزهم ـ ولو كانوا أعضاء في مجلس القيادة ـ حتى يكون مصدر الأمر واحداً، ومرجع الطاعة موحداً، وإلا تعددت القيادات ونشأت بالتالي مراكز القوى، واختل توازن كل شيء..

وبديهي أن الطاعة المقصودة، هي الطاعة بالمعروف، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك، وأثرة عليك»[3].

ويجوز أن تسحب البيعة من قيادة جاهرت بالكفر والفسوق، وانهارت الثقة بها، وبات ضررها أكبر من نفعها بإجماع الثقاة من أهل الحل والعقد ممن اختاروها وولوها. أما الخروج على القيادة، وتشكيل المحاور، وإيغار الصدور،

---

(١) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

والتحريض على الفتنة والأذى والعدوان، فإنه من مُضلات الهوى ونزغات الشيطان، وليس له في شرع الله دليل أو برهان..

إن حدود اعتراض الأفراد على سياسة ما، أو موقف ما، يجب أن ينحصر في المجالات التالية:

أ ـ أن تكتنف مسألة ما بشبهة مما يعرضها للمفسدة، فإن على الأفراد في هذه الحالة واجب التبين والتنبيه ليس إلا.

ب ـ أن يُختلف على تقدير تحقق أو عدم تحقق مصلحة ما، فهذا وإن كان من حق القيادة فليس من ضير على الأفراد من التنبيه ولفت النظر.

ج ـ أما حق الأفراد في معصية القيادة وعدم طاعتها، فينحصر في حال معصيتها القطعية والثابتة لله، وعدم وجود أي مبرر شرعي لمواقفها وممارساتها، وقيام الحجة عليها في ذلك. فعن عبادة بن الصامت قال: دعانا النبي ﷺ، فبايعناه. فقال فيما أخذ علينا: «أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان»[1].

إن لتعميق معاني الطاعة مفاهيم شرعية يجب أن تربى

---

(١) رواه البخاري.

القاعدة عليها. ومنها إن من حقوق القيادة المفاضلة بين السياسات الجائزة، واختيار ما يتناسب والظروف والمصلحة. فقد كان رسول الله ﷺ في موقفه من الأسرى: يَمُنّ على بعضهم، ويقتل البعض الآخر، ويفادي بعضهم بالمال، وبعضهم بأسرى المسلمين، وقد فعل ذلك كله بحسب المصلحة)[1].

والقيادة لها الحق الشرعي في أن تحارب أو تهادن أو تحالف حسب المصلحة ومقتضى الضرورة، شرط أن يكون ذلك بعد تمحيص الآراء والاستشارة.

وللقيادة الخيرة في الأخذ بواحدة من هذه السياسات، واستحسان وتفضيل بعضها على بعض بحسب اجتهادها وتقديرها، كما على الأفراد أن يلتزموا اختيارات القيادة ولو كانت مخالفة لآرائهم وقناعاتهم، إلا أن يروا فيما اختارته القيادة وقررته خروجاً على الإسلام، وتعريضاً واضحاً بمصلحة المسلمين، وعندئذ يتعين عليهم مكاشفتها بالدليل الشرعي والحجة والبينة، وفي حدود آداب التواصي بالحق وأصول النقد المباح.

فشل الحركة أو هزيمتها:

ومما يتسبب بالخلاف والشقاق، ويُفضي إلى الانشقاق:

---

(١) زاد المعاد ٢/٢٦٦.

فشل الحركـة في قضية ذات أهميـة، أو انهزامها في معـركة، وبخاصة إذا تمحور السبب بالقيادة، وكانت أصـابع الاتهـام مشيرة إليها لوحدها. فهنا تتحرك في النفوس أهواؤها ويُبتعث ما دُفن وعفى عليه الدهر من سقطات وأخطاء، وكأنها فرصة العمر وسانحة الدهر، يجب اهتبالها!.

فتُنسى في تلك اللحـظة المعـاني الشرعيـة كلهـا.. فـلا موضوعية ولا تثبت، وإنما هـوى متحكم، ونفوس مشرئبـة، وفتنة هائجة يرتع فيها إبليس على هواه والعياذ بالله تعالى!.

وفي غفلة من النفس، وانسياق مع الشيطان ينسى الأخ أخاه. ينسى أن: «المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكـذبه ولا يخـذله»[1]، وأن: «كل المسلم على المسلم حـرام دمه ومـالـه وعرضه»[2].

ينسى كل ذلك ويتحول وحشاً كاسراً ينهش إخوانه دون مخافة من الله أو استحيـاء منه تعـالى.. ألا قتل الإنسـان ما أكفره!.

في تاريخنا المعاصر تجربة مُرّة وقاسية، اسأل الله أن يَخرج أصحابُها من الفتنة التي وقعوا فيـها قبل أن تمزقهم شر ممزق..

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه مسلم.

كان السبب المباشر لهذه الفتنة ما سبق وأشرنا إليه.. فقد وقعت بساحتهم هزيمة دفعت الحركة ثمنها باهظاً من رجالها وشبابها. وكان التلاوم وتبادل الإتهام، وكان النقد والتجريح، ثم ارتفعت وتيرة ذلك إلى الحد الذي ولد الغل والحقد، وكرس انشقاق الصف قاعدة وقيادة والعياذ بالله تعالى.

ولو أن هؤلاء جميعاً التزموا أدب الإسلام في الخلاف لفُض لساعته. ولكنها النفس الأمارة بالسوء. النفس التي تنسى في ساعة الغفلة وارتكاس الإيمان كل القيم والتوجيهات القرآنية والنبوية، وكأنه طبع عليها بالطابع الذي أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: «الطابع[١] معلق بقائمة عرش الله عز وجل. فإذا انتهكت الحرمة، وعمل بالمعاصي، واجترىء على الله، بعث الله الطابع، فيطبع على قلبه، فلا يعقل بعد ذلك شيئاً»[٢].

جاء في كتاب (أدب الاختلاف في الإسلام) ما يلي[٣]: (من خلال استعراضنا لقضايا الاختلاف نلحظ أن الهوى لم يكن مطية أحد من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. وإن

---

(١) الخاتم.

(٢) رواه البيهقي.

(٣) الدكتور طه علواني ـ كتاب الأمة ـ (أدب الاختلاف في الإسلام) ص: ٧٢.

الخلافات التي أفرزت تلك الآداب لم يكن الدافع إليها غير تحري الحق. كانوا يتحاشون الاختلاف وهم يجدون عنه مندوحة، فهم يحرصون كل الحرص على عدمه. وحين يكون للخلاف أسباب تبرره يسارعون للإستجابة للحق، والاعتراف بالخطأ، دون أي شعور بالغضاضة. لا يجاوز أحد منهم قدر نفسه، ولا يغمط حق أخيه.. وكل منهم يرى أن الرأي مشترك، وأن الحق يمكن أن يكون فيما ذهب إليه، وهذا هو الراجح عنده، ويمكن أن يكون الحق فيما ذهب إليه أخوه، وذلك هو المرجوح. ولا مانع أن يكون ما ظنه راجحاً هو المرجوح، ولا شيء يمنع أن يكون ما ظنه مرجوحاً هو الراجح. كانت اخوة الإسلام بينهم أصلاً من أصول الإسلام الهامة التي لا قيام للإسلام دونها، وهي فوق الخلاف أو الوفاق في المسائل الاجتهادية.

إن اختلاف الأولين، والذي وصل إلى حد الاقتتال، لم يخرج هؤلاء عن أدب الإسلام في الخلاف. فالخلاف بين علي ومعاوية على شدته، لم يخرج واحداً منهما عن طوره وأدبه. فقد أخرج أبو نعيم عن أبي صالح قال: دخل ضرار بن صخرة الكناني على معاوية، فقال له: صِفْ لي علياً، فقال: أو تُعفيني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا أعفيك. قال: أما إذا لا بد، فإنه والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، ويتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواصيه.

يستـوحش من الدنيـا وزهرتهـا، ويستأنس بـالليل وظلمتـه. كان والله غزير العبرة (الـدمعة) طـويل الفكـرة، يقلب كفيه ويخاطب نفسه. يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما جشب (خشن). كان والله كأحدنا، يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه. وكان مع تقربه إلينا وقربه منا لا نكلمه هيبة له. فإن يبتسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يُعظّم أهل الدين ويحب المساكين. لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله. فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومـه، يميل في محرابه قابضاً لحيته، يتململ تململ السقيم، ويبكي بكاء الحزين فكأني أسمعـه وهو يقـول: يا ربنا يا ربنا، يتضرع إليه، يقـول للدنيا: إليّ تعـرضت؟ إلي تشوفت؟ هيهات هيهات، غري غيري. قد بتتك ثلاثاً (أي طلقتك) فعمرك قصير ومجلسك حقير، وخطرك يسير، آه آه من قلة الزاد، وبُعد السفر، ووحشة الطريق.

فوكفت دموع معاوية على لحيته ما يملكها، وجعل ينشفها بكمه، وقد اختنق القوم بالبكاء. فقال معاوية: كذا أبو الحسن رحمه الله...

وينال أحدهم من أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بمحضر من عمار بن ياسر ـ الذي كان على غير موقفها يوم «الجمل» ـ فيقول له رضي الله عنـه: (اسكت مقبوحـاً منبوحـاً، أتؤذي محبوبة رسول الله، فأشهد أنها زوجة رسول الله ﷺ في الجنة.

لقد سارت أمنا عائشة رضي الله عنها مسيرها وإنا لنعلم أنها زوجة النبي ﷺ في الدنيا والآخرة. ولكن الله ابتلانا بها ليعلم أياه نطيع أو إياها)[1].

ثانياً: الانهيار الكامل للحركات:

وبعض الحركات تتعدى اصابتها حدود الانقسامات والانشقاقات، فتصاب بالانهيار الكامل، وقد تندثر وتصبح أثراً بعد عين..

وفي تاريخنا المعاصر حركات قامت ثم بادت..

وأجدني في هذا المقام أمام حركة قامت في بلدنا ونمت بسرعة عجيبة، وذاع صيتها في الآفاق، ثم ما لبثت أن تهاوت وانفرط عقدها، ولم يبق من آثارها إلا ما خلفته وراءها من سلبيات على ساحة العمل الإسلامي..

ومن فقرات البيان الأول الذي صدر عن هذه الحركة، تتضح معالم النهج المعتمد لديها والقائم على المفصلة المعلنة من أول يوم مع كل القوى والأنظمة والتنظيمات، ودون أن يسبق ذلك إعداد وبناء وضبط وتنظيم لكل المقومات والطاقات البشرية والتقنية والأمنية والعسكرية والاقتصادية والطبية وخلافها.. مما أقحم الحركة في أتون الصراعات والتصفيات

---

(١) أخرجه البيهقي.

المتلاحقة، وأفقدها القدرة على التحكم في زمام نفسها وخطاها ومواقفها وسياساتها وتصرفاتها. وهذا ما جعلها عرضة لردات الفعل المختلفة، وطعماً سهلاً لاستدراج القوى والسياسات المعادية للإسلام، وبذلك انتهت وحكمت على نفسها بالإعدام!.

عوامل الضعف في هذه الحركة:

تميزت هذه الحركة بخصائص كانت جديدة وملفتة ومثيرة في ظاهرها، ولكنها كانت مضرة وخطيرة، بل كانت السبب الذي قوض بنيانها ودك أركانها وسنتناول في هذا المقام بعضاً من هذه العوامل على سبيل الدارسة والعبرة:

١ - جماهيرية العمل:

اعتمدت هذه الحركة في دعوتها للإسلام النمط الجماهيري، وصولاً إلى خلق تيار إسلامي عام، وبتعبير خاص (نقلُ الإسلام من الحالة التنظيمية وجعله حالة شعبية).. ولقد كان هذا المنحى قاسماً مشتركاً بين أطراف الحركة حتى قبل قيامها، حيث كان هؤلاء يأخذون على (الحركة الإسلامية) تشبثها بالعقد والقيود التنظيمية وتمحور العمل في إطار التنظيم. علماً بأن هذه الحركة تحولت بعد فترة من قيامها إلى صيغة تنظيمية وبنية حزبية جديدة..

والحقيقة إن اعتماد السياسة الجماهيرية منذ اللحظة الأولى لنشأة الحركة لم يترك لها مجالاً لتكوين بنيتها التنظيمية وأجهزتها العاملة القادرة على ضبط وتوجيه الشرائح الشعبية الملتحقة بها.. والعمل الجماهيري يمكن أن يكون ناجحاً إذا أمكن ضبطه وترشيده واستيعابه..

ولقد تسبب العمل الجماهيري - لدى هذه الحركة - إلى ولوج عناصر شتى إلى صفها، بل إلى مواقع مهمة وخطيرة فيها..

- من هؤلاء من ليس لديه أدنى فهم للإسلام، حتى ما ينبغي أن يعرف من الدين بالضرورة..
- ومنهم من دخل الحركة لغاية ما في نفسه، مادية أو سياسية أو أمنية إلخ..
- ومنهم من كان عيناً على الحركة يرصد حركاتها ويستطلع أسرارها ويسبر أغوارها..

وهكذا أصبح جمهور الحركة خليطاً متناقضاً متفاوتاً في ولائه للإسلام وللحركة مما جعل الجماهيرية) عبئاً على الحركة وعامل إيذاء يومي لها ولسمعتها..

٢ - الاهتمام بالشعار:

إن النمط الجماهيري في العمل يعتمد عادة على الشعار

أكثر من المضمون، وذلك لسهولة نقله وتداوله.. والحركات التي لا تتمكن من تحويل الشعار إلى مضمون، وترجمة الشكل إلى محتوى تفقد قيمتها وفاعليتها، وتكون بالتالي أعجز عن تحقيق أهدافها الكبرى والبعيدة.

والإسلام ركز اهتمامه على المضمون والمحتوى من غير إغفال للشعار والشكل، وكما أنه حرص على تحقيق نصاعة ونظافة المظهر والجوهر، إلا أنه اختص الجوهر باهتمام أكبر.. فمن قوله تعالى: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خُشُبٌ مسنَّدة يحسبون كل صيحة عليهم الآية..﴾ ومن قول الرسول الأعظم ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم».

والحركة هذه أولت الشعار الاهتمام الأكبر، ولم تتمكن من ترجمة الشعار إلى فعل عمل يومي يراه الناس ويلمسونه.. بل كان العمل في كثير من الأحيان مخالفاً للشعار متعارضاً مع المظهر.. وكان هذا من أشد عوامل الهدم في جسم الحركة..

إن مئات من الرايات الإسلامية والشعارات الإسلامية والملصقات الإسلامية ليست هي السبيل لتحقيق التغيير الإسلامي وإقامة حكم الله في الأرض، ما لم يتم ترجمة مضمون هذه الرايات والشعارات والملصقات في واقع حياة الناس وأخلاقهم وقوانينهم.

٣ ـ الاهتمام بالكم:

ومن الأمراض الفتاكة التي تصيب الحركات عموماً ـ والتي أصابت هذه الحركة ـ انشغالها بالكم عن الكيف، وانصرافها إلى توسعة رقعة انتشارها بدل تركيز هذا الانتشار وتأصيله وتجذيره..

والإسلام على عكس هذا تماماً، فقد اهتم بالنوع لا بالعدد، وشغل باستنهاض القيم في الإنسان والارتقاء به في مدارج الكمال البشري، ولم يكن همه يوماً تكديس الأفراد للوصول إلى رقم أكبر.

ويوم بدر انتصرت النوعية الجيدة على قلتها، بينما انهزمت الكثرة في حنين حيث خالطها شيء من رياء، ليتأكد من ذلك أن النصر للمؤمنين ولو كانوا قلة، وأن وراثة الأرض لعباد الله الصالحين ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾.

ولم يكن الكم يوماً إلا عبئاً على الحركة الإسلامية، لأن الكم مرتبط دوماً بمتاع الحياة الدنيا حيث جاء وصفه في قول الله تعالى: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب..﴾.

ومن هنا يمكن أن نفهم سر انتقاء الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله للقادة الأربعة الذين أرسلهم لمساندة عمرو بن العاص يوم فتح مصر، حيث كتب له قائلاً: (إني أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل، رجل منهم مقام الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلّد. واعلم أن معك إثني عشر ألفاً، ولا تغلب إثنا عشر ألفاً من قلة).

٤ ـ غلبة الاهتمام العسكري:

ومن الظواهر التي اتسمت بها هذه الحركة غلبة الاهتمام العسكري لديها على أي اهتمام آخر..

وهذا ما دفع بالشباب اليافع والمراهق ـ الذي يهوى حمل السلاح ـ إلى الالتحاق بالحركة.. بل هذا ما أغرى حملة السلاح وتجاره من قبضايات الأحياء وأصحاب السوابق والمنافع المختلفة بركوب الموجة والاحتماء بغطائها والضرب بسيفها..

والحقيقة أن القوة العسكرية سلاح ذو حدين، إن لم يضبط ويحسن استعماله، كان وبالاً على صاحبه، وبخاصة إن كان هذا السلاح بيد غير أمينة، ومع أناس لا يخافون الله ولا يتقونه..

لقد تسببت هذه الظاهرة بممارسات شاذة على الساحة الإسلامية، حيث استخدمت القوة العسكرية في الاعتداء على

أموال الناس وممتلكاتهم، ووظفت في سبيل تحقيق المصالح والمنافعه الشخصية.. فكم من بيوت أخليت بقوة السلاح.. وكم من عقارات اشتريت - بأثمان بخسة - بقوة السلاح وكم من (خوات) فرضت على الأفراد والمؤسسات بقوة السلاح.. وكم من كرامات ديست ومقامات أهينت بقوة السلاح!.

ثم إن امتلاك القوة العسكرية قبل امتلاك القوة الإيمانية، والكفاءة الخلقية، والوعي السياسي، والانضباط التنظيمي، مدخل نفسي إلى كل الآفات النفسية، كالعجب والغرور والاستعلاء، وهي من الصفات التي يجب أن ينأى الإنسان العادي عنها، فكيف بمن نصب نفسه داعية للإسلام وعاملاً على ساحته؟؟.

والحركة التي تسكرها مظاهر القوة، وتخدعها الأعداد الكبيرة من المؤيدين، تندفع بغير وعي إلى امتلاك الساحة والتحكم فيها، وإخلائها من كل قوة أخرى ولو كانت إسلامية!! ذلك أن الحركة - ذات النزعة العسكرية - تحرص على الانفراد بساحة العمل وعلى تصفية كل المنافسين ولو كانوا حلفاء مرحلة أو أنصار قضية.

من هنا كان لا بد للقوة العسكرية من أن يحكمها الشرع، ويلجمها العقل، وهو ما عبر عنه الإمام الشهيد حسن البنا في معرض كلامه عن موقع القوة في موقع الحركة حيث قال: (أما

القوة فشعار الإسلام في كل نظمه وتشريعاته... والإخوان المسلمون لا بد أن يكونوا أقوياء، ولا بد أن يعملوا في قوة.. ولكن الإخوان أعمق فكراً وأبعد نظراً من أن تستهويهم سطحية الأعمال والفكر، فلا يغوصوا إلى أعماقها، ولا يزنوا نتائجها وما يقصد منها وما يراد بها.. فهم يعلمون أن أول درجات القوة قوة العقيدة والإيمان، ويلي ذلك قوة الوحدة والارتباط، ثم بعدهما قوة الساعد والسلاح.. ولا يصح أن توصف جماعة بالقوة حتى تتوفر لها هذه المعاني جميعاً. وإنها إذا استخدمت الساعد والسلاح وهي مفككة الأوصال مضطربة النظام أو ضعيفة العقيدة خامدة الإيمان فسيكون مصيرها الفناء والهلاك..

هذه نظرة، ونظرة أخرى: هل أوصى الإسلام ـ والقوة شعاره ـ باستخدام القوة في كل الظروف والأحوال؟ أم حدد لذلك حدوداً، واشترط شروطاً، ووجه القوة توجيهاً محدوداً؟.

ونظرة ثالثة: هل تكون القوة أول علاج أم أن آخر الدواء الكي؟ وهل من الواجب أن يوازن الإنسان بين نتائج استخدام القوة النافعة ونتائجها الضارة، وما يحيط بهذا الاستخدام من ظروف؟ أم من واجبه أن يستخدم القوة وليكن بعد ذلك ما يكون؟[1].

---

(١) مجموعة الرسائل ص: ١٣٤.

٥ ـ علانية كل شيء:

ومن الأخطاء التي ارتكبت على الساحة الإسلامية من قبل الحركة هذه، العمل بعكس قاعدة (ليس كل ما يعلم يقال) بل بسياسة (التفكير بصوت عالٍ) وبسياسة كشف كل المواقع والأهداف والخطوات القريبة والبعيدة، وهذا كله مخالف للنهج النبوي الذي كثيراً ما أكده الرسول ﷺ بقوله: (استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان[1]. وفي القرآن الكريم إشارات كثيرة إلى هذه المعاني منها: وصية يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله شيئاً﴾ [2] وهذه إشارة من نبي من أنبياء الله إلى ضرورة الأخذ بكل أسباب الحيطة والحذر وعدم كشف القوى والأشخاص. . والأمثل في كل الأحوال الالتزام بقاعدة (علانية العمل وسرية التنظيم) وصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أوانفروا جميعاً﴾ [3].

والحقيقة أن سياسة العمل في نقطة الضوء، أو بالعبارة الدارجة (على المكشوف) أدت إلى كشف وتعرية ساحة العمل

---

(١) رواه الطبراني والبيهقي.

(٢) سورة يوسف: الآية ٦٧.

(٣) سورة النساء: الآية ٧١.

الإسلامي، مما ساعد على رصدها ومعرفة تفصيلات تحركاتها، واستكشاف رجالها وقياداتها وقواها جميعاً. . . . فكل شيء أصبح على السطح وعبر وسائل الإعلام دون أدنى تحفظ. . وهذا بالنتيجة خطره كبير وشره مستطير. . ولقد أكدت الأيام والأحداث صحة ذلك، ولكن بعد فوات الأوان وخراب البصرة.

٦ ـ انعدام الوعي السياسي:

قد يظن بعض الجهال أن الإيمان يغني عن الأخذ بالأسباب وعن الوعي السياسي وعن التدبر والتبصر في الأمور. . والحقيقة أن الإسلام يدفع ويحض على الأخذ بكامل الأسباب ومنها الوعي، واستكشاف الآفاق واستشفاف ظواهر الأمور وبواطنها. .

والحركة التي لا تمتلك الأجهزة والقدرات اللازمة التي تعينها على عمق النظر في القضايا، وعلى بعد النظر في الأمور، من أجل استكشاف أبعاد وآفاق السياسات والمواقف والمواقع والصراعات المحلية والإقليمية والدولية، وعلى معرفة موقع كل حدث مما يجري على هذه الساحات والمستويات جميعاً، هي حركة لن يكتب لها الحياة، ولن يحالفها التوفيق، ولن تكون في خير وعافية، خاصة واننا في عصر غدت فيه مصالح الدول

والنظم والأحزاب والمؤسسات والأشخاص متشابكة متداخلة، وعملية التفكيك والتحليل واستخلاص النتائج ليست بالأمر السهل وتحتاج إلى جهود وإمكانات جبارة.

والحقيقة أن هذه الحركة لم يكن لديها هذا الأفق السياسي، وهذه المرجعية الذاتية التي تعينها على تقصّي الحقائق وتحديد التوجهات والسياسات السليمة الصحيحة، وهذا ما جعلها تقع في كثير من التناقضات في المقولات والمواقف والتصرفات..

وحسبي أن أتناول في هذه العجالة بعضاً من هذه السياسات التي إن دلت على شيء فإنما تدل على ضآلة في الوعي السياسي وعلى قصر نظر..

أولاً: أعلنت الحركة عداءها لكل الأنظمة والدول والتنظيمات والأحزاب دفعة واحدة وقبل أن تكون بنيتها وإمكاناتها قادرة على مواجهة ردود الفعل والتحدي من واحدة من هذه القوى، فكيف بها مجتمعة؟. (راجع الوثائق).

ثانياً: شنت الحركة هجوماً على نظام معين تجلى ذلك في خطب وتصريحات وبيانات متعددة، ثم عادت بعد ذلك تهادن وتلاين بل وتمتدح وتطري. (راجع الوثائق).

ثالثاً: عارضت الحركة بقوة وعنف فكرة تولي الجيش للأمن، وقامت من ذلك بعدد من التصرفات العنفية لمنع

الجيش من النزول، ثم ما لبثت أن وافقت ورحبت (راجع الوثائق).

رابعاً: تحالفت الحركة مع زعيم فلسطيني واشتركت معه في غرفة عمليات واحدة، ثم ما لبثت أن شنت عليه حرباً شعواء ووصفته بالخائن والعميل (كذا)! (راجع الوثائق).

خامساً: أعلن أمير الحركة عن استعداده لحل القضية اللبنانية، ولكن دون أن يقدم بين يدي ذلك أي مشروع بهذا الخصوص، إلا إذا استثنينا الطرح المبدئي للإسلام وأنه البديل والقادر على حل مشاكل البشرية جمعاء.. (راجع الوثائق).

سادساً: تصورت هذه الحركة أن اقامة الحكم الإسلامي أمر جد بسيط، وإن ذلك لا يحتاج لأكثر من قوة مسلحة وشعارات ورايات وامراء يحكمون الشوارع، إضافة إلى عدد من السجون والتعاونيات الاستهلاكية.. ولقد فاتها أن الحكم الإسلامي يجب أن يسبقه تغيير جذري للواقع الجاهلي، وأن يمهد له ويساعد عليه قيام بيئة قادرة على احتضان حركة التغيير الإسلامي، وعلى الدفاع عنها، وعلى إمدادها بكل متطلبات الصمود والاستمرار..

إن الحكم الإسلامي لا يمكن تحقيقه في مدينة مطوقة عسكرياً، محاصرة اقتصادياً، معزولة جغرافياً!! بل إن مجرد التفكير في إقامة حكم إسلامي في مدينة من المدن أو شارع من

الشوارع ضرب من العبثية والسطحية. (راجع كتاب: التغيير الإسلامي سماته ومستلزماته).

٧ـ اختصار الزمن:

ومن السمات البارزة في أساليب وطروحات هذه الحركة، أنها كانت حريصة على اختصار الزمن في عملية التغيير الإسلامي.. علماً بأن عامل الزمن له قيمته وأهميته في أية عملية تغييرية أو حتى خطوة تصحيحية.. فما يحتاج إلى عشر سنوات لا يمكن اجتزاؤه بسنة، وما يحتاج إلى مائة عام لا يجوز اختصاره بعشرة أعوام!.

والتغيير الإسلامي ـ بصورة خاصة ـ ليس عملية تجميلية أو شكلية، وإنما هو استبدال واقع بواقع، بكل ما في هذا الواقع من مرتكزات عقائدية وفكرية وتشريعية وقانونية وخلقية وحضارية. وعملية كهذه، يُنتظر أن تقف كل قوى الجاهلية في العالم دون تحقيقها ونجاحها، يجب أن تأخذ مداها من الإعداد وحاجتها من الاستعداد..

وكل مطلع على المشاريع والسياسات التي يعتمدها أعداء الإسلام، من حركات صهيونية وصليبية وشيوعية، لتحقيق أهدافهم وغاياتهم، يلحظ مدى عناية هؤلاء بعامل الزمن، فيرون أن الهدف الذي قد يستحيل تحقيقه اليوم، يمكن أن

يكون مستطاعاً بعد ذلك، وأن المشروع الذي يصعب الوصول إليه وإقامته اليوم، قد يَسهُل غداً، وذلك لاعتبارات كثيرة منها: توفر مزيد من الإعداد والتحضير، وتوقع مزيد من الظروف المناسبة، وامتلاك مزيد من المعطيات المساعدة..

والإمام البنا أشار إلى هذه الناحية في رسالة المؤتمر الخامس حيث قال: (أيها الإخوان وبخاصة المتحمسون المتعجلون منكم.. اسمعوها مني كلمة عالية مدوية: إن طريقكم هذا مرسومة خطواته، موضوعة حدوده، ولست مخالفاً هذه الحدود التي اقتنعت بها كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول.. أجل، قد تكون طريقاً طويلة ولكن ليس هناك غيرها.. إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب.. فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها، أو يقطف زهرة قبل أوانها، فلست معه في ذلك بحال، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات.. ومن صبر معي حتى تنمو البذرة وتنبت الشجرة وتصلح الثمرة ويحين القطاف، فأجره في ذلك على الله، ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين، إما النصر والسيادة وإما الشهادة والسعادة..)[1].

ويقول الأستاذ عبدالرحمن عبدالخالق: (ثم نقول لهؤلاء

---

(١) رسالة المؤتمر الخامس.

المستعجلين: هل تظنون أن التربية كالصناعة المادية، حيث تصنع الخامة من المعدن أو القطن أو الصوف في جانب من المصنف، لنتلقاها في جانب آخر: سيارة وثلاجة وقماشاً؟؟.

وهذا خطأ كبير، لأن التربية الإنسانية الفعلية بطيئة بطء النمو الجسماني. فتربية الأفكار والعقائد وآداب السلوك يحتاج من الزمن ما يحتاجه النمو الجسماني وأكثر.

ومثل المستعجلين في التربية، كمثل من يريد جنيناً بشرياً في أقل من تسعة أشهر، ومن يريد إخراج رجل كامل في أقل من السنين التي تستلزم ذلك.

والحال، إننا نحتاج لنعيد الأمة إلى جادة الحق وصراط الله إلى عدد من السنين يناسب الوقت الذي في مثله يتربى الجيل)[1].

(١) العقبات التي تعترض بناء الأمة الإسلامية ص: ٣٩.

الخاتمة

في نهاية هذا الكتاب أود أن أخلص إلى القول بأن التربية الإسلامية الأصيلة تربية وقائية كما تبين لنا بالدليل والحجة عبر رحلتنا القصيرة في هذا الكتاب..

وإنني اتمنى على المربين والقائمين على الشؤون التربوية في كل مكان أن يولوا هذا الموضوع أهمية خاصة، لعل في ذلك ما يعين، بعون الله، على رأب الصدع، ومعالجة الخلل، وتحصين الساحة الإسلامية، افراداً وجماعات، من الظواهر المرضية والانحرافات السلوكية والحركية.

إنني أقترح على الجهات المختصة ـ حركية ورسمية ـ أن تعيد النظر في مناهج تربيتها والسياسات التربوية التي عندها في ضوء فرضيّة اعتماد النهج الوقائي في شتى المجالات التربوية والحركية.

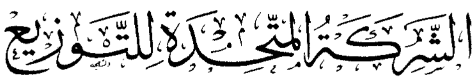
﴿إنّ في ذلك لذكرى، لمن كان له قلب أو ألقى السمع، وهو شهيد﴾.

صدق الله العظيم

وصلى الله على رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم

فهـرس الموضوعـات

تطلب جميع منشوراتنا من :



بيروت - شارع سورية - بناية صمدي وصالحة ☎ ٣٢٢٤٣٠٦ - ٨١٥١١٢ ✉ ٧٤٦٠

دمشق - حجاز - شارع مسلّم البارودي - بناء خولي وصلاحي ☎ ٢٢١٢٧٧٣ - ٢٢٢٦٤٤٣ ✉ ٢٦٢٥

برقيًا بيوشران

عمان - دار البشير - العبدلي - مركز جوهرة القدس التجاري ☎ ٦٥٩٨٩١ - ٦٥٩٨٩٢ ✉ ١٨٢٠٧٧